

غسان الجباعي

قمل العانة

رواية



رواية

الكاتب: غسان الجباعي

لوحة الغلاف للفنان السوري موفق قات

غسان الجباعي

قمل العانة

رواية

عنوان الكتاب: قمل العانة
المؤلف: غسان الجباعي
الناشر: دار شامة للنشر
تاريخ النشر:
رقم الايداع:
تصميم الغلاف والإخراج الفني للكتاب: بشير الحامدي
© جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار شامة للنشر

chema.edition2015@gmail.com

Tel;98529448/27507334

ثانية ودائماً:
إلى أصدقائي الموتى
الجالسين في القبور

الفصل الأول

- 1 -

كان يجب عليها أن تلبس سروال جينز قديم وحذاء رياضيًا مناسبًا. لم تتوقع أن تقودها «كندرتها» الصفراء، بكعبها العالي المدب، إلى قبو معتم ودرج مهدوم! هذا المدرج المنحط القابع تحت بناية محطمة، والذي يجب أن يأخذنا نحو الأعلى، باتجاه الضوء؛ يقودها -الآن- إلى الحضيض! غابت معالمه تحت الركام، بعد أن كُسر ظهره وتخلعت أضلاعه وخرجت من بين أسنانه قضبان الحديد. قبو مليء بالحطام والنفايات والحشرات، وربما الخفافيش والفئران القذرة، والصراصير... «أنا لا أخشى شيئًا كما أخشى الفئران: وجوهها المثلثة، أذناها الكبيرة، ذيولها الرفيعة الطويلة، ملمس وبرها المقزز، وعيونها الصغيرة السوداء اللامعة...»

إنها تكبل إرادتها على الرغم من حقارتها، تجربها على حبس نفسها في غرفة الحمام؛ إذا اكتشفت وجودها في أي ركن من البيت... جفان كان يرفض قتلها! شغوف هو بمراقبتها ورسمها! يقول إنها جديرة بالحياة أكثر منا نحن البشر: «هي الأبقى، لأنها الأقدر على العيش مع الخراب». مات الجميع وبقيت حيّة، غادر الجميع المكان - بما في ذلك جفان - وبقيت هي في جحورها، تقنات على ما تبقى من الفضلات، وتتكاثر...

يسبقها فرج بخطوة واحدة. تمت لو أنه بقي بجوارها. تركها تمشي خلفه كالظل! لم تكن مضطرة للالتصاق به، والكشف عن مخاوفها. هي من أجبره على القدوم إلى هذا المكان! هي من حرضته على القيام بهذه المجازفة: «مرسم استثنائي، مدهش، لا مثيل له»... قالت، وكانت واثقة أنه ما زال سالمًا... وظل يعترض ويكرر: «كان مدهشًا... كان...! رحل صاحب المرسم والرسام، ولم يبق غير الركाम... دفن تماثيله ومنحوتاته الصغيرة في «فناء القبو»، ورحل! حتى اللوحات التي كانت بيوتًا ومرايا لوجوه سكانها، باتت مهجورة ممزقة...»

كان اسمها هند، هي رسامة أيضًا... تمتع طويلاً، قبل أن يوافق على مرافقتها إلى ذلك القبو؛ مدّعياً أن الأمر لا

يستحق المجازفة، وأن المكان هناك، ما زال خطراً موحشاً، وأن جفان أخذ معه كل شيء، ورحل! تعرف لماذا يرفض، يريد لها أن تنسى! باتت اللوحات بالنسبة لفرج محض هراء، أمام المصيبة التي حلت بالبلاد! تعرف ذلك... لكنه لا يعرف... هو -أيضاً- فنان ويقدر قيمة اللوحات، كان شاهداً على ولادة أكثرها، لكنه لا يعرف... هاتف داخلي يقول لها إن لوحاته ما زالت صامدة، تنتظرها متكئة على الجدران أو ملتصقة بها. هي واثقة أنها نجت، وما زالت مخبأة هناك، تدير وجهها إلى جدار سميك، داخل ذلك القبو العميق... يجب أن أحصل عليها بأي ثمن... «وماذا يبقى من اللوحات إذا تكسرت الجدر وخرجت النار من نوافذها؟! يقول فرج، «ماذا يبقى من المعنى إذا فقدت الحياة حياتها، وبات الموت هو الحقيقة الوحيدة الحية! إذا فقدنا الغالي فمن الذل أن نبحت عن الرخيص»...

ظنت أن الأمر سيكون بسيطاً، وأنها ستجد المكان بسهولة، حتى وهي نائمة، لكنها لم تتمكن؛ حتى من معرفة تلك البناية الشاهقة بمدينة داريا⁽¹⁾، البناية التي كانت مكسوة برخام أبيض، والتي تمزقت شققها وتراكمت أمام مدخلها، مثل كومة من قشور اللوز! بات المدخل الكبير مكتوماً، فما بالك بقبو يجثم تحتها، فاحت منه روائح الجثث

1 - مدينة في غوطة دمشق الغربية، تم تدميرها وتهجير سكانها عام 2016.

والفضلات، وبات حاوية للخراب!

دخلا -خلسة- من فجوة في جدار خلفي . قادهما درج غبي، خلعت أسنانه، نحو الأسفل! حتى الأبواب والنوافذ اجتثت من أماكنها، وظهرت بخليط من طوب مكسر وشظايا زجاج وسيراميك ورخام وحديد وخشب وقرميد وبقايا أنابيب ماء ملتوية، وثياب مزقة ودمى وكتب ودفاتر محروقة وأصص ورد وحبال وملاقط غسيل.....

مشت خلفه مطمئنة نفسها: «سأجدها... سأجدها...» بدأ الضوء يخفت درجة بعد درجة، حتى تلاشى... وبدأت العتمة تغلفها، تمنعها من الرؤية أو التفكير وتدفعها إلى الخوف: «لودست الآن على حشرة ما، أو لامس ساقي العارية فأر ما، لتحطمت مقاومتي في الحال، وتشبثت بعنق فرج، رافعة قدمي عن الأرض، أو عدت راکضة نحو فجوة الضوء، مائلة المكان بالصراخ...»

بدأت تشعر بنبض شرابينها، تسمع دقات قلبها، وهي تخفق في صدغيها وتكاد تخرج من أذنيها، صارت حواسها كلها محشورة في كندرة صفراء، تتحسس بها طريقها... جلّ ما كانت تخشاه أن تدوس عظمة ساق أو جمجمة طفل... كانت تهمس لفرج، بين حين وآخر، تنصت

إلى وقع خطواته المتعثرة؛ فترتاح! ومن سوء حظها، علق قضيب حديدي ناشز بذيل فستانها، فانخطفت فجأة إلى الخلف بقوة، وشهقت، ثم انقذت نحو الأمام بعنف؛ عندما تمزق فستانها الأبيض المورّد الجديد، وكادت تسقط أرضاً! «اتفقنا أن نرتدي أجمل الثياب، فلبستُ هذا الفستان الرقيق المورّد، وحملت حقيبة جلدية لافتة، كي لا تشك بأمرنا العيون المتربصة، وحرصنا على أن نغلق هاتفينا، ولا نستخدم الضوء، خوفاً من القناصين!»

كانت صلتها بفرج عبد الله ملتبسة، نعم... وكي لا يظنّ أحد أن علاقة ما مريبة، تربطها بهذا الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين بعد، والذي التصق بها وصار جزءاً عزيزاً من ذاكرتها؛ فلا بد من الإشارة إلى أنها كانت أكبر منه بعقد ونصف، امرأة جريحة، لم تكن جروحها قد التأمّت بعد، كي تسمح له برؤيتها أو لمسها، فاكتفى هو بصداقتها والقرب منها، دون غيرها من النساء، واكتفت هي منه بذكرى جفان ورائحته...

كان فرج يتيماً... وكانت هند تقترب من سن اليأس!

عندما وصلا إلى مكان آمن، أضاء فرج مصباح

قداحتها الخافت، وبدأت الخيالات الغامضة تتحرك معهما وتتراقص حولهما، مثل أشباح الكوابيس فوق جدار مغارة خرافية، تكبر وتصغر وترقص وتتلاشى... «سأجدها... سأجدها»... تقدما كلصين من باب وحيد. عرف فرج الباب كما عرفته هي. كان هذا المرسوم الملعون أول مشغل عمل فيه فرج، أول الحياة! وكان جفان شريكاً ورقيقاً، كما كانت هند شريكة له ذات يوم... تسميه مرسماً، وفرج يسميه مشغلاً، وكلاهما يعرف لون هذا الباب الحديدي المتبذل، طوله وعرضه وملمسه وشكله... مفتاحه ما زال معها، في حقيبتها الجلدية! كان لونه أسود، لكنه تحول إلى ما يشبه الرماد أو الغبار! فيه ثقب يتسع لإصبعها، تحول إلى ثقب رسائل في بداية حبهما، كانت تدس له الرسائل عندما لا تجده في القبو... وكم زارته في النهار وقضت الليل معه، كلما سنحت لهما الفرصة...!

«كان ينحتني كل مرة بأصابعه، يرسمني بعرقه ومائه... عنقي، يبدأ دائماً من سرتي، ولا ينتهي عند ذقني أو شفتيّ! رعشتي لا تبدأ من فرائصي، بل من رموش عيني... أستطيع أن أخرج رأسي من النافذة وأصابع قدمي من الباب؛ وأنا جالسة في حضنه فوق أريكته، على الأرض العارية الباردة مثل لوحة. وكنت أرسمه بالنبيذ بكحل العينين، وأحمر الشفاه واللعاب... وكلما انعقد ماؤه اللزج في داخلي،

محوته خلسة بالدم! كم مرة رسمني فأجهضت، ثم حبلت،
ثم أجهضت، ثم...»

كانا يحتفظان باللوحات ويجهضان الأجنة! لم يكن
لديهما خيار آخر؛ علاقتهما كانت محرمة، ولم يكن جفان
يحلل الزواج... لولا ذلك، لصار لديهما الآن أطفال أكثر
بكثير من اللوحات المكسدة والأيقونات المعلقة! ولكانوا
ماتوا جميعاً في الحرب، لا إجهاضاً في المستشفيات والعيادات
المارقة، بل ذبحاً بالسكاكين وحرقاً بالنار، أو خنقاً بالغازات
السامة، أو وأداً تحت الأنقاض والركام...

فرج - أيضاً - كان يملك نسخة من المفتاح، أخرجها
من جيبه الداخلي وحاول فتح الباب بهدوء، لكن لسان القفل
رفض أن يتحرك! لم يكن يريد أن يصدر ضجيجاً، حاولت
بدورها... كان القفل صدئاً، أو أن الباب كان مصروعاً،
أصابه ارتجاج في الأضلاع، بسبب القذائف! لكن، ما إن دفعه
فرج بكتفه دفعة قوية، حتى سقط فجأة على الأرض مع
إطاره، مصدراً ذلك الأنين الموجع والصوت المجلجل!

كاد قلبها يتوقف وكادت تسقط فوق الباب، لو
لم تتشبث بفرج... جمدهما الخوف برهة، وكم كانت
دهشتها كبيرة، عندما انقشع الغبار وساد الصمت، وظهر
ضوء مفاجئ، تبين أنه انبثق من فجوة، أكبر بكثير من نافذة،

وأصغر من جدار! فجوة عشوائية تطل على وجيبة يضيئها النهار! شوشهما الذهول والوجل! لم يجسرا على الحركة أو حتى الارتباك... وخيم السكون من جديد، وبات كل شيء واضحًا مرعبًا وغبيًا... إنها قذيفة هاون، وربما قذيفة دبابة مارقة...

الأسوأ من ذلك، أنها مع أول خطوة خطتها داخل تلك الغرفة الغريبة؛ سمعت عبارة عدوانية ساخطة، خالية من المودة والاحترام:

- «اطلعوا لبرّا!»⁽¹⁾

توقفت مكانها. خافت أن تتراجع. نظرت إلى فرج مستفهمة مستعينة به! بدا وكأنه لم يسمع أو ير شيئًا، مع أنه هو من دخل أمامها. «ظننت أفي واهمة! تلفتُ حولي. انتظرت أن أرى ذلك الرجل، أن أجد ذلك المرسوم وتلك الصناديق والتحف الفنية المنوعة، والمنحوتات النحاسية والفضية والخشبية! أين هي؟! أين حطامها!! هل سرقوها!؟»

كانت الغرفة مهجورة، خالية تمامًا من الأثاث والإنس، خالية من اللوحات والألوان ورائحة زيت النفط... مرسوم بلا سببة رسم أو علب ألوان وفرش... هو أقرب إلى المغارة

1 - اخرجوا من هنا

المجوّفة، منه إلى الغرفة المكعبة، جدر سميقة، مطلية بملاط خشن متشقّق، تنزّ منها الرطوبة الغامقة، مشكلة أمواجاً عجيبية من العفونة الكلسية المتدرّجة... بدا لها السقف مائلاً، منخفضاً جداً، متعرّجاً حتى... الهواء معتلّ بالتأكيد، رائحة العفونة تطفئ على رائحة السبيداج والأصباغ والزيوت. ضوء ترابي مصاب بالرمد، ربما بسبب الضياء المنبعث من الفجوة العشوائية! الحيطان جرداء تماماً، والأثاث الوحيد في هذه المساحة المحايدة، خليط من خرق حائلة، وثيراب قديمة مزقة، وأغطية رثّة، وأسما، وعلب كرتون بالية، مكومة في الوسط... اللون الوحيد في هذا المكان البدائي، هو لون الغبار... اللوحة الوحيدة هي ما رسمته العفونة من أشكال وظلال فوق الحيطان. مصدر الضوء فيه، فجوة فتحتها قذيفة! أما النافذة، فما من نافذة سوى الباب القتل الذي سقط مع إطاره قبل قليل، وما زال مفتاحه في حقيبتها!

«توقعت أن أجد مرسمًا مضاءً بنافذة واحدة على الأقل! لم أنتبه إلى أن الفجوة أكلت النافذة التي أعرفها! كنت آمل أن أسمع سعاله، أو عبارة: أهلاً وسهلاً، مثلاً! قد تكون ساخرة، ولعلها ساخطة أو حزينة، فأنا على موعد مع رجل «محبط»، رحل منذ سنة (كما قال فرج)، وبقي ظله. يقضم أصابعه في الليل ويستخدمها في النهار لمزج الألوان

المتوحدة. رجل لم يغتسل منذ أن أطلقوا عليه النار. كثيف الشعر، طويل الشاربين والذقن، في الأربعينات من عمره... انتظرت أن تجده كما عهده، جالسًا على الأرض، يشرب قهوته، أو منزويًا، صامتًا ربما، أو واقفًا على قدم واحدة بمواجهة نافذة رسمها على الجدار بحبره الأحمر. لكنها لم تجد الرجل، بل سمعت صوته وحسب. تعرف صوته جيدًا، كان خشنًا واضحًا حقيقيًا، تردد صده في الغرفة كالطنين. ازدادت حيرتها، وبدأت تشكّ بما سمعت ورأت؛ لكن ما إن حطت خطوة جديدة داخل الغرفة، وقالت: «مرحبا» كعادتها، حتى تكرر الصوت ثانية، وبشكل حاسم هذه المرة:

«اطلعوا لبرّا ولا»...

جفلت، ظنت أنه لم يعرف صوتها، وأن الأمر موجه إليها تحديدًا! واحتارت ماذا تفعل! تقهقرت بشكل غريزي إلى الخلف، بينما تابع فرج طريقه بثقة وهو يعلن:

«مرحبا جفان... هذا أنا، فرج»، وأزاح ستارة سمكة، علقت بالمسامير في صدر الغرفة؛ تغطي «مطوى»⁽¹⁾ مبنياً من الطوب، حوله صاحب القبو إلى مستودع لـ

1 - المطوى: خزانة إسمنتية أو طينية على شكل صندوق مستطيل بارز، يستخدم لطّي وتخزين أفرشة البيت والأغطية والمخدات.

«الأنتيكا» والمقتنيات العتيقة.

هناك، خلف تلك الستارة، رأت جفان، وقد عاد إلى أصله، عارياً محشوراً في فراغ ضيق، يستلقي على قفاه ولا يستر جسده إلا شعره الأسود. كان حقيقياً! وشعرت أنه سينهض أخيراً، كي يطردها، كي يحتج ويصرخ، مثل أي «قرد» يقتحم عالمه السري ذكر آخر... هُيئ لها أنه سيخرج من مكانه، دون أن يغطي شعر عانته الكثة، لكنه بقي هادئاً، مسالماً! وكادت أن تلقي السلام عليه، لكنها اكتشفت أنه مقيد اليدين بحبل ثخين خشن، يشبه حبل المرساة، ويتلاشى مثلها تحت الماء! كان مغموراً بالماء الأسن، والفقاعات تخرج من سرتة وأنفه وأذنيه... تحرك متكدراً مثل سمكة نائمة. غطى عينيه الكبيرتين بجفنيه الثخينين، عندما رأى الضوء الباهت، وبدأ يتقلص ويتكور على نفسه، محاولاً أن يطوق ركبتيه بساعديه، ويقلص جسده إلى أصغر كتلة ممكنة، داخل ذلك المطوى المغلق، تحول إلى جنين مكسو بالطحالب... وبدأ يغرق ببطء، حتى استقر أخيراً في القاع، ثم استدار بوجهه المثلث نحوها، وتوقف عن الحركة تماماً...

«واختلط الأمر عليّ، عندما التقت عيناى بعينه السوداوين. من هذا؟! من أين؟! ولماذا؟! هل هو صاحب ذلك الصوت الخشن، الذي أمرني بالخروج، قبل قليل، أم هو كائن

خرافي منسي داخل هذا الرحم المتعفن!؟»

ما رَوَّعها حقًا، هذا الوجه المثلث الصغير، إنه يشبه إلى حد كبير وجه الفأر: جبينه، أنفه، شفتاه، ذقنه، عيناه الخرزتان، شارباه الطويلان، حتى شعر عانتة يشبه عانة جفان... لكن هذا الوجه بلا حاجبين. عينان كامدتان مثل حفرتين. أذنان كبيرتان ذابلتان، إحداهما سقطت على كتفه، كورقة يابسة! أهدابه سوداء طويلة، أكثر من اللازم؛ بدت كما لو أنها رُسِمت -على عجل- بقلم من أقلام كحلتها. أصابعه دقيقة، رفيعة تُذكر ك بأقلام الرصاص أو أعواد الكبريت. أنفاره طويلة مدببة. جسد غير متناسق، يميل إلى الغلو، بخطوطه الحادة البارزة وألوانه المكدسة. تشريح سقيم لرجل ضامر: صدر عريض، خصر نحيل، رقبة مائلة، ساقان طويلتان مرفوعتان نحو الأعلى، مطويتان عند الركبتين إلى بطن ضامر... للوهلة الأولى، بدا لها كائنًا معلقًا، أو فاقدًا للجاذبية الأرضية. لا تدري إن كان يستلقي على ظهره أم يتأرجح داخل هذا الإطار الإسمنتي. بدت لها أعضاؤه التناسلية نافرة مثل... مثل...! لا، لا، لحظة... حدث أمر طارئ، لم تتمكن بعده من وصف أي شيء... ستتوقف الآن عن الرؤية والتفكير. وتزعق فورًا، وبصوت حاد، مثل كل النساء، وتخرج من المكان كالمختلة... في البدء، تتلعثم، تتقلص أضلاع صدرها وتعجز عن التنفس... لم تصدق

عينيهما بعد! لم يكن عضواً تناسلياً، بل فأراً حقيقياً سميناً جداً، يختبئ بين ساقيه وينظر إليها بخرزتين لامعتين. أخذها العجب برهة، لكن ما إن قفز هذا الفأر من بين ساقيه، وركض مسرعاً ليختبئ في كومة الخرق المليئة بالفئران؛ حتى زعقت، وهربت من المكان، خارجة عن طورها... ولحق بها فرج مسرعاً، حاول إقناعها بأن ما رأته محض لوحة. لكنه لم يستطع، وما أظن أن أحداً يستطيع إقناعها بذلك...

قال لها مستغرباً: «ما بك!» وقال غاضباً: «هل خفت؟!» وقالت له: «لوحة يا فرج!! لوحة تتحرك فيها الفئران وتقفز منها إلى الأرض!؟»... «لم يتحرك شيء، والله لم يتحرك شيء غير الستارة التي أزحتها بيدي».

كانت منفعلة لدرجة أنها لم تكن مستعدة لتصديق رجل واحد، وتكذيب عينيهما الاثنتين. «خيّل إليك ذلك هند، صدقيني. هذه لوحته الأخيرة. إنها لوحة!؟».

طلب منها أن تعود ثانية لتراها من جديد، وتتأكد بنفسها؛ لكنها تركته وخرجت مذعورة، وعادت وحيدة إلى بيتها؛ غير عابئة بالعيون وبنادق القناصين، ولا بفستانها الممزوق من الخلف، وساقيهما المجرّحتين، ومؤخرتها شبه العارية...

- 2 -

لم تجرؤ على النهوض من سريرها! اكتشفت أنها
عارية تمامًا! لم يحدث هذا من قبل! كانت ترتدي -حتى في
ليالي القِيظ الخانقة- ثيابًا محتشمة!

تلمست جسدها، استطلعت المكان، محاولة أن
تكتشفه؛ وهي تشد اللحاف حول صدرها الذابل، أن
تتذكر تفاصيل ما حدث في الليلة الفائتة: هل حدث شيء
ما استثنائي؟ كانت بمفردها كالعادة، لم يزرها أحد، منذ
أن تشاجرت مع فرج، بسبب محاصرته لها! لم تخرج من
البيت، ولم يكن لديها رغبة في رؤية أحد. لم تشرب الفودكا
أو تدخن سيجارة حشيش واحدة، لم تشاهد التلفاز أو
تمارس «طقوسها السرية» أو... حاول فرج إقناعها بزيارة

القبو ورؤية آخر لوحة رسمها جفان، لكنها لم تصدق. كانت مرهقة مستوحشة، نامت باكراً وهي تقرأ مذكرات بابلو نيرودا (منزل الأزهار) ... لم تنتبه إلى كومة الثياب التي وضعت أمام أنفها، على كرسي ملتصق بسريرها! إنها ثيابها الداخلية! شلحتها وجورباها الرقيقان وحماله نهدها وفستانها الأبيض المورد القصير! وكادت تصرخ! ما الذي أتى بهذا الفستان إلى هنا؟! اشترته وعلقته في خزانها منذ سنوات ... نهضت كالملسوعة، رفعت الفستان بين يديها، وشهقت: «يا إلهي» ...! كان مزوقاً من الخلف، كما لو أن آلة حادة شقت قفاه حتى النهاية؛ تماماً كما لو أنه حدث في الحلم ...! من الذي فعل هذا؟! رمت الفستان في وجه المرأة وقالت لها:

- لا يا سيدي الكاتب! ليس حلمًا ولا كابوسًا! لم أذهب مع فرج إلى أي مكان ...! لم أكتشف أنني عارية! ولم أتلمس أو أشهق أو أستغرب ما حدث! أنا عارية مذ ولدت، وحياتي العادية هي الكابوس. من أين أتى خيالك العبقري بهذا الفستان الأبيض «المورد»؟! لا يوجد لدي أي فستان! أنا امرأة لا ترتدي الفساتين منذ سنين! لا تحاول التلاعب بالوقائع ولا بالأحلام! أنا لا أحلم الحلم بل أعيشه! إنه عالمي الخاص؛ حياتي السرية الموازية ... ومن قال لك إن اسمي هند؟! ماذا تعرف أنت عن امرأة وحيدة، لا تخرج

من منزلها، حتى تكتب عنها، وتتجراً على الاقتراب من
 هواجسها وتأويل أسرارها وأشواقها؟! إذا كان الخيال حقاً
 من حقوقك؛ فلماذا تحوله إلى كابوس! ثم، كيف تجرأت على
 وصف صدري بالذابل؟! هل رأيته؟ هل لمستته؟ أنا امرأة بلا
 صدر يا سيدي! ثديان وحلمة واحدة! ربما كنت ترغب في
 رؤيتي عارية! أهذا ما تريد؟ هل ترغب في ذلك حقاً؟ هل
 تشعر بمتعة ما، وأنت تصفني كيف أتلمس أعضائي وأغمض
 عيني؟ أتلمسها، نعم، لن أعتد على أصابعك أو على أصابع
 غيرك، في تلمس جسدي... نعم... أتفقد فخذي وبطني، بين
 حين وآخر، أعصر صدري، أقرص حلمتي وأصفع مؤخرتي
 أحياناً، فماذا تريد أيضاً؟! أن أفتح ساقّي وأمارس لذتي
 أمامك؟! حسناً، أمارسها بطريقتي، لكنك لن ترى ذلك،
 إلا في خيالك الداعر! من أنت، وماذا تريد مني؟ لو كنت
 لصاً أو متلصصاً لأحببت ذلك! وتخيلتك، وأنت تحبس
 أنفاسك، فاغر الفم، مختلساً النظر إلى نوافذي، من خلف
 ستائر السميكة... لكنك محض متحرش روجي يا سيد!
 لا تستخدم قلمك ولا أصابعك، بل خيالك العاجز...
 ثمة أشياء، لا نستطيع نحن النساء - البوح بها، حتى
 لأقرب المقربين لدينا، لصيقة هي بأرواحنا، دافئة أكثر
 من جسدين. هل تعرف ذلك؟ أم ترغب أن ترائي وأنا أداعب
 براعمي وأشهق! هكذا! بلا سبب أو مقدمات؟! حسناً، وماذا

بعد؟ لك أن تفتح ركبتَيَّ في خيالك، أن تدس أصابعك بين فخذَي، وتضغط على ذكورتك الموتورة بيدك الأخرى! لك أن تجتاح جسدي بمنظار وهمي، من خلف ستائر مغلقة، لك أن تهرس حلمتي بأسنانك، لك أن تتخيل ما تشاء... لكن كيف تستطيع أن تنفذ إلى الجوهر؛ إلى الرحم؟

- عفواً... أنا...

- أعرف من أنت وماذا تريد. بأي حق، ولماذا تكتب عني، وماذا ستكتب؟! رأيتك مرة واحدة! وقد نسيتك الآن تماماً... هل تذكر اسمي؟ كان ذاك في حلم من ظلال السبات، أو دخان اليقظة! ربما رأيتك في سقيفة ما، أو على شرفة مهددة بالانهيار من شرفات الزبداني⁽¹⁾ الخربة، أو نافذة بلا جدار في حي جوبر⁽²⁾، أو في قبوما، من أقبية الله التي تختنق بالركام! هل تحب الأقبية؟ لقد أجدت وصف المكان: داريا، والدرج المنحط، والبناية المحطمة، وكومة قشور اللوز، وباب الحديد الرمادي، والفئران والمطوى... لكنك خلطت بين قبو جفان وقبوي! هل أنت وحيد مثلي؟ لن تستطيع الكتابة لو لم تكن وحيداً! الكتاب يحبون الأقبية، معتكفون، غرباء، أناثيون، أشقياء، يارسون نزواتهم بأحرف وصور مبهمه مشوشة!

1 - مصيف جبلي مشهور غرب دمشق.

2 - جوبر حي دمشقي تم تدميره وتهجير سكانه.

إنهم يشتهون ويحلمون، فيكتبون؛ كي يارسوا شبقهم على الورق، أو يداعبوا بأصابعهم لوحة المفاتيح في حواسيبهم، مداعبتهم لأزوار العاهرات... يكملون نقائصهم بالخيال! يلذ لهم الاحتكاك بالفضائح، كما يحتك المهووس بمؤخرة طفلة ناضجة! يكتبون بأقلامهم الصلبة كلماتٍ طرية ناعمة، يدسون رؤوسها في فوهات المحابر، ثم يكتبون بمتعة ملتبسة، وهم يدركون، أو لا يدركون، أنهم يارسون العادة السرية! يا لها من لعبة مجازية خطيرة! هل يعقل أن يكون الخلق متزجًا إلى هذا الحد، بالشهوات العابرة الهجينة؟! تعال نمارس حبًا نظيفًا واضحًا، إن شئت، أو عن طريق التخاطر أو الصوت والصورة...!

هل سئمت من «أدب السجون» وتجرب الآن كتابة قصة مثيرة، تشارك بها الآخرين في تحريك غرائزهم؟ أهذا ما تريد؟ جيد جدًا، أحسنت، تستطيع الاعتماد علي، لكن لماذا حولت حلمي إلى كابوس؟! من أذن لك بالدخول إليه؟! هل تنتقم مني لأنني أخرجتك منه؟ ومن قال لك إنه كان حلمًا أصلاً؟! هل تعرف عما كنتُ أبحث في ذلك القبو؟ هل حاولت أن تضع نفسك مكاني أو أن تتعرف على حكايتي؟ أم تظن أنني امرأة بلا حكاية؟! وماذا لو تبادلنا الأدوار؟ ماذا لو كنتُ أنا من يكتب عنك؟ أكنتُ انتقلتُ من كابوس ساخن إلى سرير بارد؟! أكنتُ وصفتك عاريًا في سريرك كما

وصفتني .؟

هذه المرأة -أيها الغريب- لا تشبهني، بل تشبهك أنت. توقف عن ذلك، ولا تقل لي انتظري يا سيدتي، لم تكتمل القصة بعد! كما قال -يومًا- ذلك المجنون بابلو بيكاسو؛ عندما رسم سيدة، فقالت له إن اللوحة لا تشبهها، فقال انتظري؛ سوف تشبهك، عليك أن تنتظري لأكثر...

حسن! قل لي بربك أيها الكاتب الذي لا يشبه بيكاسو؛ كم صفحة علي أن أنتظر؟

- ومن قال إنني أنا من يكتب؟ أأست أنت من اقترح هذه الحكاية، وطلب أن نكتبها معًا؟ ألم تطلبي إلي ذلك راجية؟! ألم تدّعي أنها قصة حقيقية! ألم تضعي بين يدي خطوطها العريضة! ثم إن بطلّة الحكاية، ليست أنت يا سيدتي. إنها حكاية مفككة قائمة! ما أنت فيها إلا تفصيل ناعم في مشهد خشن... أعرف أن الكتابة عن المرأة -حتى العادية- أمر عسير وعويص، فما بالك إذا كانت «فنانة» مشاكسة ومهووسة مثلك، مركبة من زنايق وأشواك، من حب وكره وطين وجمر، لا يستطيع فهمها إلا القمر، تعيش أحلامًا كثيرة واضحة كالضوء، وحياة قليلة غامضة كالعتمة. جسدها متاهة من قناديل الليل والبحر، وبتلات الورد... وتاريخها

ملتبس، سري وغامض! إنه أمر صعب جداً، لكنني وعدتك،
وسأحاول...

- «لا يستطيع فهمها إلا القمر!» يا لها من تعابير
رومانسية مبتذلة! ومن قال إن تاريخي ملتبس، ولماذا
وضعت كلمة فنانة بين قوسين؟ هل تشك في موهبتي أيها
السيد!؟

- أبداً... الحكاية ليست عنك أنت! ليست عنك
وحدك! بل عن أولئك النسوة اللواتي عرفني، وترك
ندوباً في ركبتي وظهري.

- هكذا إذًا! ولماذا اخترتني أنا؟ هل كنت إحداهن؟!
قل... لا أعرف كم طعنة تلقيت في حياتي، ولم أعد أذكر
وجوه الرجال الذين عرفْتُ، ولا عدد الركب التي ركعت
عارية في سريرتي... هل تعرف العلامات الفارقة بين فخذي؟!
لدي وشم في عانتي، خبأته تحت الشعر، لم ينتبه إليه أحد
منكم بعد، هل تعرفه؟ هل تذكر لون عيني، رائحة جلدي،
سجلي «الأخلاقي»... لماذا تريد أن تتحدث عني وليس
عنك؟

- وما الفرق؟ نصفني امرأة ونصفي الآخر يشبهها في
القسوة والرقّة والغيرة و«التخبّص». يحق لك أن تغضبني!

أن تمتصي شغفي على عجل، كما تمتص النبتة ماء الرمل،
قيدنا واحد وحكايتنا واحدة.

- وما هي؟

- ليست عن ذلك الصديق العتيق الذي ظل -
لسنوات- يقبع داخل قبو مدمر، يستلقي على قفاه عارياً
عائماً خلف ستارة ذلك المطوى المبني من الطوب... لكن القبو
واحد -على أي حال- واللحم واحد، والنفس واحدة، أمانة
بالسوء والجودة والرداءة... تذكرني ذلك... كل منا يكمل
خطيئة الآخر، وما من خطيئة، صدقيني. من ذا الذي
اخترع الخطيئة ونسي الخطأ؟ نحن مجبولون على النقص
حتى نكتمل، النقص مجدنا وخلودنا... أجسادنا خلقت
عائبة، وكل جسد يحتوي عيب الآخر، من دون احتواء!
لا وجود لذكر وأنثى في السليقة والإبداع! فالطبيعة أنثى،
وكلاهما نسخة عنها... سننتظر كثيراً حتى نتشابه، ربما
بضعة عقود، وربما يجب علينا أن ننتظر الموت، ليس موتك أو
موتي، بل موت الحكايات.

- أكمل الروايات تلك التي لا تنتهي بالسعادة...

- بل أكملها تلك التي نتخلص منها...

- تعال إذن ننام معًا، كي ننهيهما في الحلم... لك سريرك، ولي فراش الشوك، والحلم واحد، لا يحتاج إلى أسرة أو أثاث، مثل الكوابيس.

- ألا تريدين أن تكوني امرأة مثيرة؟ محبوبة، مرغوبة، شهوانية؟ ألا تريدين أن تكوني بطة؟

- بلى، من لا تريد هذا! لا حياة بلا إثارة وشغف وبطولات! لكن يجب أن أصنعها بنفسى.

- فلماذا تعترضين إذن على الإثارة؟! هل تخلمين بأن تكوني حقًا، من لحم ودم وأعصاب، أم خرافية من زجاج ونور؟! ستكونين خرافية... وقد أغرم بك أيضًا، كما أغرم بجماليتون بـ جالاتيا... عليك أن تعترفي أولاً: لماذا ذهبتِ إلى ذلك القبو؟ هل تعرفين عمّا كنت تبحثين؟

- أنا لا أبحث عن شيء. دعك من هذا. ولماذا أبحث؟ كل ما فوق التراب صار تحته! ولماذا «يجب» علي أن أعترف، وبأي حق تطلب إلي وتأمرني؟!

- قلتِ إنك تملكين حكاية وترغبين في التخلص منها، حكاية مرعبة لا تستطيعين احتمالها! هل تذكرين؟ ألم ينصحك طبيبك النفسى بتفريغها كي تنتصري على

نفسك! ألم تطلبي مني أن نكملها معًا؟ أما برقت عيناكِ عندما وافقت... وعندما قرأتِ لكِ المقطع الأول من روايتي، شهقتِ! هل تذكرين؟ أنتِ من أغواني... دعوتك إلى غرفتي التي أمارس فيها «لذتي السرية» كما تقولين، قرأتِ عليكِ المقطع الأول، فاختلطت رعشتك برعشتي بغتة، وجاءتكِ لذتي الواجمة... وها أنتِ الآن تحتجين وترفضين، وفوق ذلك تقولين: لا، يا سيدي الكاتب، لم أكن أبحث عن شيء، لم يكن حلمًا ولا كابوسًا! لم أكن عارية، لم أتلمس أو أشهق أو أستغرب ما حدث! أصبحت -فجأة- امرأة أخرى، وصرتُ أنا كائنًا غريبًا! محض «رجل مجهول» مختلس، أو لص نساء بناظور، مهووس بالإثارة والشبق! نعم! أشعر بإثارة عارمة وأنا أكتب؛ شعور مزيج من اللذة والمضض، لا يوازيه شعور، إنه الوحيد الدائم الذي تختلط فيه رغبات الجسد بمتعة الروح، رغبة التعري من الثياب الزائفة. لماذا تخشين العري! ولدنا عراة ونموت عراة كالصخور على شاطئ البحر، يغسلها -عبر الزمن- ماء مالح وأشعة شمس!

- لا تتحدث عن البحر! أرجوك... أنا ابنة البحر الذي فقدته.

- أعرف! قلت لي ذلك... ولماذا تخافين إذا من الاعتراف؟! أليس البحر جديرًا بالكتابة؟! من منا لم يفقد شيئًا عزيزًا

كان يود الاحتفاظ به، أو يبحث عن شيء ما حميم فقده إلى الأبد!؟

- أنا... لا... أبحث... عن شيء، وأنت... لا... تعرفني.
لم أفقد شيئاً ولا أهاب شيئاً...! كل ما في الأمر أنني لا أعرفك،
وأن هذه المرأة لا تشبهني. ربما تشبهك أنت... من قال لك
بأن اسمي هند!؟ من أين أتيت بهذا الاسم!؟ أنا «طهران زهر
البان»... قل لي أولاً: لماذا اخترتني؟ بماذا أستطيع مساعدتك؟
صحيح أنك كاتب، ومن حقك اختيار شخصياتك ورسومها،
لكنها ليست مباحة لأي كان؛ حتى لو كانت تفصيلاً لذيذاً
في روايتك... لم أقرأ لك شيئاً من قبل، وبصراحة... لا أثق
بك! كتبك التي وصلتني، موجودة على الرف! لم أكمل أيّاً
منها، لأنها ساذجة مترددة خائفة... وكبي أكون واضحة
معك: أنا لا أحب الكتاب العرب، ولا أقرأ إلا الروايات
المتجمة!

- 3 -

عندما طلبت مني أن نلتقي، لم أكن أعرفك، وعندما عرفت ترددت، ولم أوافق على اقتراحك. طلبت منك المساعدة لأكثر، وليس المشاركة! كيف يمكن أن نكتب معاً رواية واحدة هي روايتك أنت، وعن امرأة لا أعرفها أنا، بل أنت! ربما كان الشيء الحقيقي الوحيد، هو هذا اللقاء اليتيم بيننا، في الحلم! نعم، في الحلم، وسيبقى كذلك! وبالمناسبة، أعجبت جداً بعينيك الحزنتين... لكنني يومها، لم أستيقظ! بقيت أسبوعاً كاملاً أمشي في السبات وأسبت وأنا ماشية! وقعت في حالة من الاكتئاب النسائي، وتوقفت دورتي الشهرية عند الخاصرة! لم يحدث لي ذلك من قبل، ظننت أنني وصلت إلى العنوسة قبل الأوان! كان اقتراحك مرعباً، فجر ذاكرتي!

ليتك كنت فرنسيًا، يابانيًا، أو من أي بلد بأمريكا اللاتينية. لو كنت فوكنر مثلًا، أو أستورياس؛ شعرت عندها بالسعادة، وربما الاطمئنان... هل قرأت دوستوفسكي، وهل شعرت بالخجل من نفسك وأنت تقرأه؟ ليس لأنه أعظم منك ومني، لا... بل لأننا عندما نقرأه تستيقظ ضمائرنا، ونشعر بالخجل من أنفسنا ومن إنسانيتنا الملتخعة بالسخام... أما تشيخوف... يا إلهي كيف وصف هذا الرجل المرأة، في قصصه ورواياته! كم كان يحترمها ويحبها! وكيف كان ينتقدها بأناقة وينفذ إلى روحها المضطربة بهدوء ونعومة...

ستظن بأنني أستعرض هذه الأسماء أمامك، كي أبدو لك بأنني مثقفة! لا يا سيدي، ليس لهذا، بل لأن معظم الكتاب العرب تافهون، مع احترامي لك ولهم، لديهم عقدة اضطهاد مزمنة. إنهم... منافقون، غير مهنيين ولا موهوبين، ولا يمكن الركون إليهم! لم يحدثوا فرقًا كبيرًا، لا في الأدب ولا في الفكر ولا في الفلسفة... وكيف يمكن للصغار أن يكتبوا أفكارًا كبيرة، عن الوجود والمرأة والحريّة والجمال؟! المرأة في نظرهم، عاهرة ملعونة، أو طاهرة منزهة، مقززة ومشتهاة وفاتنة، في الحقيقة والحلم، وفي الأحوال كلها، ليست شريكًا؛ بل تابعًا... إن جرحها سيظل ينزف إلى الأبد...

- وما علاقتي بجرحها؟! هل أنا من جرحها؟ المرأة لا

تمل من الشكوى! تقول إنها جريحة؛ ونزيفها أجمل ما فيها.
ما ذنب الرجل في ذلك؟ لو كانت الطبيعة تشكو لتحديث
عن ملايين الجروح: النهر جرح، والجبل جرح، والشجرة
جرح، والنبع والرياح والزهرة والأفق والبركان والنحلة...
لكن الطبيعة لا تشكو؛ بل تنتفض وتنتقم لنفسها، كما
يفعل الوادي؛ عندما يهدر جارفاً في طريقه كل من تجاوز
حدوده... إعصار واحد يجعل الحضارة تقف على رأسها
مرتعدة عاجزة أمامه! يمكننا أن نروض الرياح، لكننا، نقف
عاجزين أمام الأعاصير! قد نروض النهر، لكننا نعجز أمام
الفيضانات والهزات الأرضية والبراكين... قوة الطبيعة لا
حدود لها...

- وحضارة الرجال -أيضاً- لا حدود لشرها، لقد
صنعت الحرب والتقنية القاتلة! لكنها عجزت أمام الخسة
البشرية... الذكور يموتون في الحروب، وتموت النسوة في
قتال الذكور عليهن! أما النساء اللواتي يمتن في الولادة
وجرائم الشرف والاغتصاب والاعتداء عليهن واستغلالهن؛
فيوازي عدد الرجال ويزيد... المرأة تدفن حية عندما
تولد، وعندما تجبر على الزواج من رجل لا تحبه، أو تظن أنها
أحبته... إنها تدفن حية في الحقول والمطابخ وغرف النوم!
تدفن في ثيابها وحجابها وعبوديتها... تموت ألف مرة في الحياة

الواحدة، وإن تمردت تحولت إلى فاجرة أو زانية...

- لا أحب هذه الكلمات، وليس هذا موضوعنا على
أى حال...

- بل هو موضوعي الوحيد! نعم، أنا كذلك، لأنني تركت جفان يموت وحيداً، بعيداً في مكان غير بعيد عن يدي. لم يكن متاحاً لقلبي عندما أطلقوا النار على قلبه. كان بيننا حاجز واحد ومئات البنادق... نعم، أنا زانية في مكان مخفي! بشرة بيضاء ناعمة، لحم طري، ومؤخرة متلئة، مصدر للمتعة السابغة والفحولة، أظفار مقلمة مطلية بالوحل، فم مصبوغ، شعر طويل، نهدياان كبيران... هل تستطيع أن تنسى شعري، كما نسيه جفان؟ بالمناسبة، لم أكن يوماً أحب الشعر الطويل والكنادر الصفراء والفساتين الرقيقة الموردة... كنتُ وما زلت ذئبة جائحة، فهل تتقن الحديث عن الذئاب؟ هل تستطيع أن تكون شريكاً حقيقياً لي؟ هل تستطيع أن تكون صديقاً لامرأة بلا نهدين؟

أنا أيضًا لدي ما أقوله . هذا صحيح! تجاوزت الأربعين منذ سنين؛ وما زلت واجمة... أريد أن أبوح، أن أصرخ، لكن بوحى يחדش الحياء! يخرمش السماء والفطرة البشرية . هل تفهمني؟ وإن استطعتَ فهل تملك الشجاعة والأمانة على البوح ببوحى؟ هل أنتَ حر بما يكفى، لחדش حياء هذا

العالم بمخيلتي أنا، وليس بقلمك العاجز؟ بأنيايبي أنا، وليس بحروفك العائبة؟ هل أنت قادر على مواجهة التبعات؟

- نعم، هذا ما تحلم به الرواية... إذا امتلكننا شجاعة البوح نقول الحقيقة!

- حسن، لن أستخدم أسلوبك «الشفاف» فأنا لا أعرف الحقيقة، ولا أبوح بشيء إلا إذا كنت مسرمة أو سكرى. هل يناسبك هذا؟ أنا مصابة بجروح، لا أشفى منها بالكتابة وحدها. نعم، أنا ناقصة، لكن نقصي في الصدر لا في الرأس... فهل تستطيع الانتظار حتى «أكتمل»؟ وحتى إن سهوت أو غفوت، أو شربت الخمرة ودخت الحشيش، لا أملك الحق ولا القدرة على البوح، أو حتى التساؤل! هل منعك أحد -يوماً ما- من السؤال أو التساؤل؟ هل جربت ذلك؟؟ أنا قادرة فقط على التخيل.

- تهربين إلى العجز، أو تخافين الحقيقة.

- ليتني أستطيع الهرب...

× × ×

- أنا من قرية «ظهر الدب»... أجل، سميت كذلك، على اسم صخرة عالية تشبه الدب... لا تشبهه فحسب، بل

هي دب حقيقي كان يتأهب للقفز إلى البحر ... ربما خذلته الشجاعة، فبقي -منذ قرون- عالقاً على الحافة مثل جرف ...

عندما كنتُ صغيرة كنتُ أمشي في نومي؛ وعندما يصطدم وجهي بكرسي أو باب أو جدار، أصحو وأخاف ... وكثيراً ما وجدتني أُمي متكورة على الأرض، بجوار سرير، تحت طاولة الدراسة، في زاوية الغرفة، أو عند العتبة ... بضع خطوات لا أكثر، كانت تلخص رغبتني في الهرب؛ في ترك البيت، والطيوان بعيداً عن العش، على الرغم من صغر سني . وكثيراً ما كنتُ أحلم بأني أطيّر مثل نورس أخرس فوق البحر، أحلق أو أركض خلف فراشة ... أرفرف بيدي ... بضع خفقات صغيرة في الهواء، تجعلني أصل إلى قمة شجرة أو جبل شاهق، أو صخرة بعيدة، أبعد من صخرة الدب التي كان يجلس عليها أُمي لاصطياد السمك ! طالما اصددم جبيني بمقبض الباب أو حافة الطاولة، وسال دمي على شففتي !

كنتُ وحيدة أهلي، نعم وحيدة ... وكبي أقلع عن عادتي هذه، كانت أُمي تخوّفني من اللصوص والباعة الجوالين، الذين كانوا يأتون إلى القرية على ظهر زورق أو دابة ...

- لكنك لم تخافي! صرت تحلمين ببائع جوال يضعك في خرجه أو بمهرب ماهر يخطفك بزورقه إلى مكان بعيد ...

- وكيف عرفت ذلك؟! هل كنتَ أحد أولئك المهربين

المهرة!؟

- أنتِ من كتب هذه المعلومات في أول رسالة من

رسائلك... هل نسيت؟

- آ... نعم، هذا ما كتبته، لكن، ليس عني أنا

بالضرورة...

- كنتُ في مثل عمرك، ومثلك عشتُ في مكان بعيد

بالجبل، ورأيت النسور وهي تطير مسرنة فوق الغيم،

كنوارسك البيضاء... كنا نقول إنها خرست؛ عندما تتوقف

تماماً عن الحركة في السماء.

- وهل تنام النسور في أحلامها، أم تطير؟ هل هو حلم

راودني وحدي، أم راودك أنت أيضاً، فأحلتها إلى امرأة بفستان

أبيض، تخاف الفئران والصراصير، ولا تخاف القذائف

والقناصين! هل أنتَ قناص نساء أم ذكريات؟ وهل تجيد

القنص والغوص في أعماق النفس، كما فعل دوستويفسكي؟

أم أنتَ كاتب صحفي؟

أغلب الكتاب العرب مساكين، يقتنصون الفرص،

لكنهم لا يستطيعون كتابة شيء حقيقي! إنهم جناء!

معدل الخوف لديهم في الدم مرتفع أكثر من المسموح به! هل يعقل أن يكون ما رأيته في القبو، لوحة بالفعل؟! وهل تتحرك الأشياء داخل اللوحات؟ ومن هو الفنان الاستثنائي الذي يستطيع أن يرسم لوحة حيّة، يُعلّق فيها الناس كالذبائح وتتحرك بداخلها الفئران؟ جفان!؟

- لا... بل أنت!

- من أنا!؟

- أنت من رسمها.

- أنا!!! كيف تستطيع قول ذلك؟

- بحثت عنك وعرفت... قد لا تذكرين... تشتتين البوح وتخافين منه! تسلفت إلى شهوتك عبر العينين... أنت من كنتِ تحلمين، منذ الرمل الأول، أن تكون اللوحة متحركة مثل الموج، أنت من تعلقْتُ بالرسم والنحت والتشكيل والمعارض، قبل تعلقها بجفان. علاقتك بالتشكيل والخطوط والألوان والأحجام، لم تتغير. جفان جاء متأخرًا، عندما طغى الحلم وشوهت الذاكرة...

- أجل... هو جاء متأخرًا جدًّا، وأنا كنتُ جارة البحر! ومع أن سلسلة من الصخور العالية كانت تفصلنا

عن الموج، غير أفي ولدت قريبة جدًا منه . هو أول من سمع
صرختي الأولى وصرختي الأخيرة ... كم كنت أتمنى لو أن
أمي غسلتني بمياه البحر عندما ولدت ...

بيتنا قروي قديم مبني من الحجر، فوق نهدة مرتفعة
تطل على الزبد ... يقال إن جدي قايسه بقبلة منحها لإحدى
الحوريات العابرات! لذلك، كنت أشعر دائمًا أنني ولدت في
سفينة دافئة علقت هناك فوق تلك الصخرة، ثم تحولت إلى
جزيرة يقرصها موج البحر ... البحر الذي إذا غضب، وصل
رذاذ لسانه إلى الشرفة ... لولا أشجار الكينا العملاقة التي
تحمي بيتنا، لغطى البحر نوافذه الواسعة بالملح ...

كان والدي يحتاج بضع خطوات كي يجلس على
الحافة ويصطاد السمك، وكم كنت أرافقه إلى صخرة
الدب الشائخة التي تشبه وحشًا مشربًا نحو الأسفل ...
أجلس صامتة قربيه، أراقب الغروب معه، أو أجمع الحصى
والأصداف الصغيرة، كي أبني بيوتا للديدان والفراشات ...
هناك كبرت ... على صوت أمواجه ونوارسه البيضاء
المرقطة، وألوانه المتدرجة، ورائحته النفاذة، ومزاجه المتقلب
الغضوب . وكم كنا نتسلل، أنا وأولاد عمتي، بين الصخور،
كي نصل إلى الشاطئ، نركض حفاة شبه عراة، فوق
رماله الرطبة، نجلس على حافة مياهه، نلعب لعبة العريس

والعروس، ولا يرانا أحد سواء. هل لعبت هذه اللعبة؟ هل تتذكرها؟ أم تعيشون هناك في الجبل بلا أعراس؟ كان على أحد الصبيان أن يقوم بدور الأب الذي يرتب الاحتفال ويبارك العروسين، لأننا كنا ثلاثة أولاد وبنيتين فقط، أنا وابنة عمي التي انتحرت لأن حبيبها مات! رمت نفسها من فوق صخرة الدب، وفوجئ البحر بجثتها! كل الذين يريدون الانتحار كانوا يأتون إلى تلك الصخرة، قبل غروب الشمس، كي يفاجئوا البحر بأجسادهم الدافئة... كنا نرسم بيوت المستقبل على الرمل، وكان العريس يسك بيد عروسه ويقودها إلى ذلك البيت... قبلة واحدة على الخد كانت تكفي، كي تحبل العروس وتنجب طفلاً للتو! هل تعرف كيف كنا ننجب الأطفال؟ نقوم برسمهم على الرمل، ثم ننسى! عشرات، بل مئات الوجوه أنجبتهم على الرمل بواسطة عود صغير، أو صدفة! وإن لم يحدث الحبلُ بعد لحظات من تلك القبلة، كنت أضطر إلى خلع «لباسي» كاشفة للعريس عما أخفيه بين ساقي، كي يتأكد بنفسه أنني عروس حقيقية، ناسية تحذيرات أمي وتهديداتها. كان ذلك شرطاً من شروط الزواج الصحيح... يا إلهي... كيف كنت أعبر عن الحمل بملء أردان ثوبي بالرمل، وربطه على بطني، كي أصير حبلى! وكانت ابنة عمي تقلد أمها الحامل بالمشي والولادة والرضاعة!

كنا نبتعد قليلاً عن الموج، لنحفر بأصابعنا، المغاور
والقرب والمسالك العجيبة، نبني مدناً ونصنع أصناماً
عشوائية وبيوتاً عمياء وقناطر، وكنا نرسم وجوه أطفالنا
وعيونهم، وسرعان ما تأتي موجة كبيرة فتمحوها، وتملأ
الحفر بالماء العكر والرمل؛ تماماً كما فعلت أمي عندما كبرت!
منعتني من اللعب مع أبناء عمتي، لكنها لم تستطع منعي من
الرسم. وكان الرسم -أيضاً- شكلاً من أشكال اللعب مع
الصبيان... متعة حقيقية... لكنني كنت وما زلت، أعتبر
الإطار انتهاكاً، ليس للوحة وحدها، بل للمشاهد أيضاً.
كرهت، وما زلت أكره الخطوط المعقدة والزوايا الحادة
والمساحات الضيقة والوجوه المشوهة والإضاءة الخبيثة
وصرعات الفن التجريدي، على الرغم من أن بعضها جميل
ومدهش. عشقت وما زلت أعشق التشريح الصحيح، والألوان
الدافئة الحنونة النابضة... هل كان ذلك كله بسبب
البحر؟ ربما... البحر مثل الحب، هل تعلم؟ والألوان موسيقى
وأصوات ومشاعر مكثفة، تتجاوز وتتدرج وتتنافر وتتحد،
عاجنة دموع المحبة بزفير الكراهية، زيت اللذة بالألم، فحم
الخوف ببراعم الشجاعة وأشواكها، الذل بالكبرياء، العبسة
بالبسمة، الرقة بالقسوة، وكل ذلك بكل ذاك... والخطوط
إيقاعات تتوتر كالقوس، ترقص كالسراب، تجري حيناً
كالماء، تتمهل أحياناً كالوحل، ينمو العشب والشوك بين

شقوقها، تنمو الحجارة والمسامير، وقد تكون قاحلة يابسة مثل أرض محروقة... والأشكال ظلال؛ أرواح تفرح وتحزن وتكتتب، مثلها مثل الكائنات الحية، تتمايل كسنابل القمح ولا تميل، تتحرك مع وقف التنفيذ، تقف على تخوم الإشارة، كما تقف صخرة الدب ولا تسقط... هل فهمتَ عني ماذا أريد أن أقول؟

- فهمتُ... أظن اللوحة مثلك، تمشي في نومها، وتنام ماشية! لا أذكر من قال: إنها كائن حي. يكفي أن تجرحها حتى يسيل منها الدم.

- عرفتُ ذلك قبل جفان بقرون عديدة. ربما حين تعرفت إلى أسطورة ذلك النحات اليوناني الذي كان يخشى النساء، لكن نبض الرغبة أجبره على صنع جسد من العاج لامرأة جميلة سمّاها «جالايا»، فوقع في حبها، وطلب من الآلهة فينوس أن تحييها، وعندما صارت حيةً، كما أراد، حطّمها. هل تعرف لماذا فعل «بجماليون» هذا! قلتُ إنك تعرف هذه الأسطورة، فهل تساءلت لماذا حطّمها؟ هذه الخرافة قذفتني آلاف السنين إلى الوراء! وربما عرفت ذلك حين رأيت ركبة موسى، النبي، الذي صنعه ميكيل أنجلو من جلمود أصم، فمنحه الحياة والصدقية؛ وعندما انتهى من تجسيده، قال له: «انطق يا موسى»، وضر به بالفأس على

ركبته فكسرها...

ما زالت ركبة موسى تنزف، والكلام يقف على شفتيه حتى الآن. فهل تعرف لماذا ضرب الفنان ركبة النبي فكسرها؟ من منا يستطيع اليوم أن يكسر ركبة نبي؟! ومن منا استطاع -بعد خمسة قرون ونيف- أن يتعرف على المونوليزا؟ قل لي أنت: هل هي ذكر أم أنثى؟ مبتسمة أم عابسة؟ راضية أم ساخطة أم هي حزينة؟؟ وهل شعر دافينشي بلذة ما، وهو يرسمها؟ هل رأى نهديها، تلمس خصرها وتأكد من أنوثتها؟ يقال إن دافنشي كان مثلياً، فهل رسم الفنان العبقرى أنوثته؟

- الأنثى عمومًا، تميل إلى الأساطير والخرافات... تحب الخطوط المنحنية والألوان الزاهية، والأصباغ والزخرفة... من الطبيعي أن تكره الخطوط المتعرجة والزوايا الغامضة والمساحات المغلقة والألوان المريبة. الأنثى دقيقة وأنيقة وخيالية، لكنها واقعية، والذكر تجريدي...

- هذا ما تراه أنت! كي تهرب من السؤال! لكن جفان كان يقول إني بتُّ عدوانية تجاه اللوحة، وإني منذ وقت (لم يستطع تحديده) صرت أتماهى مع اللوحة وأصدقها. وهي، في جوهرها، كذبة في إطار، لا يجوز تصديقها! قد نصدق نصبًا من حجر أو خشب أو غضار، يمكننا لمسه؛ أما اللوحة

فهني كلام مطلبي بالألوان. شهقة نافذة في العتمة. ثقب صغير في جدار سميك، مثل حيطان بيتنا العتيق. وفي أفضل الحالات حلم كثيف لريشة رقيقة أو أصابع دقيقة أو سكين مرهف، ينسجها كائن، قريب من الله، يقلد آياته، ليراها الكافرون والحالمون والمتطفلون... «الفنان كذاب كبير»... يقول جفان ذلك، مع كل لوحة، وفي كل وقت يفصل بين لوحتين. منذ ربع قرن وهو يقول ذلك. وقد عرفته منذ ثلاثة معارض فقط. قبلها لم يُقم أيّ معرض شخصي، ولم يسمح لأحد أن يرى لوحاته. كانت تعشّش مثل عنقود نحل بين ضلوعه. الضيف الوحيد الذي زار معرضه السري كنت أنا. معرض وحيد وزائرة وحيدة، ولوحة وحيدة بيضاء، مستطيلة كسرير، مغطاة بشرشف أبيض ومعدتين، لا يظهر منها غير أربعة أقدام حافية متشابكة... إنها العشاء الأخير لذكر هو هو، وأنثى، هي أنا. كنت أتشبث بذلك الشرشف، أرتيديه، حتى وأنا عارية. أما هو فكان يريد أن يكشف عري الطبيعة.

حتى فرج «الحزين»، أقرب المقربين إلى جفان، لم يتمكن من الدخول إلى معرضه السري. حلق في عيني جفان السوداوين، ورأى من خلالهما تلك الأجنة الحبيسة، قبل أن يفرج عنها بسنوات.

- تتحدثين كثيراً عن جفان!
- إنه مثلي الأعلى، وأجمل حلم في ذاكرتي.
- وهل هو حقيقي؟ هل تعرفينه حقاً؟
- هل تغار منه!!
- اعذريني... أخشى أن يكون وهماً!
- وهم! ألم تقل إن الرواية ستكون عنه!؟
- لا! لم أقل ذلك، إنما قلت إنها: ليست عن ذلك الصديق العتيق الذي ظل لسنوات، يقبع داخل قبو مدمر... وقلت إن القبو واحد واللحم واحد والنفس واحدة، أمارة بالسوء والجودة والرداءة...

- 4 -

المرأة تتزوج رجلاً وليس رساماً. مهندساً أو فلاحاً أو طبيباً بيطرياً. قد تكون مهنته ضرورية في الحب، لكن الحبيب يجب أن يكون رجلاً أولاً، يملك أدوات الرجولة، وهي لا تكمن في اللّحى والشوارب، أو في ربطات العنق والعضلات والرتب، ولا في الخصيتين أو في تلك «العزيزة الزائدة» التي تسميها الأمهات المحترمات «حمامة» أو «دندولة»⁽¹⁾... قد تكون اللوحة ضرّة المرأة، إذا كان الرجل رساماً، ويكون الكتاب عشيقاً، إذا كانت المرأة كاتبة، لكنها تلك الضرّة التي تنفع ولا تضرّ، وذلك العشيق الذي يشبه ستارة الروح الشفافة... وجفان لم يكن رجلاً، بل رساماً. كانت

1 - الإشارة إلى عضو الطفل الذكري

فحولته تكمن في أصابعه . ما إن تراه المرأة حتى تتحول بين يديه إلى لوحة عارية مقعرة ! وكي لا يأخذك المعنى إلى أماكن خطيرة، لا يكون الفن حقيقياً إلا إذا كان عملية هتك وكشف وزنى ... «لا يكون الفن حقيقياً إلا إذا كان عارياً !» الثوب اعتداء على الطبيعة» . هكذا قال جفان، ولم تكن هذه الأفكار غريبة عنه، بل جديدة مفاجئة لي ! ربما كنت أحتاج إلى النضج والجرأة، كي أعرفها وأمارسها وأبوح بها .

كنت في طفولتي مهووسة برسم الوجوه، وقد بذلت جهداً كبيراً حتى تمكنت من رسم العيون، العيون العميقة ... بقيت سنوات طويلة حتى اكتشفت «أسرارها» ومشاعر أصحابها، وأدركت الفرق بين الالتفاتة والنظرة، الابتسامة والعتب، التحديق وغض الطرف، الوقاحة والخجل، الجسارة والخوف، العيون الصامتة والصاخبة، لمعة البؤبؤ الحيّ النابضة، واللمعة الجامدة الخالية من المشاعر الإنسانية . لم أجد على استخدام الألوان حتى تعرفت إليه ... هل تظن أن على الفنان أن يكون وقحاً ؟

- هذا سؤال إنسانة فنانة ... أخشى أن تكوني متماهية به !

- بل تخشى أن أكون عاشقة له ! أليس كذلك ؟

- لماذا لم تكملتي دراستك في كلية الفنون؟

- لم يوافق على ذلك...

- من؟ جفان!؟

صمتت! وكنت أعرف الإجابة، لكنني سألتها كي أسمع جواباً آخر، عن بقية الحكاية! حكايتها... كانت مصرة على إخفائها والتستر عليها منذ البدء، وعندما أسألها عن «سنوات القحط» تلك، تهرب منها للحديث عن طفولتها، وإذا سألتها ثانية، تحدثت عن علاقتها بجفان وفرج وفن الرسم والقبو المدمر... إنها تخفي عشرين عاماً من حياتها! ربما تخجل منها، ومن يدري، قد تكون هذه السنوات مريرة، لدرجة أنها عملت المستحيل كي تنساها، وجئت أنا لأذكرها بها، لكنها كلما ابتعدت عنها اقتربت منها! كيف يستطيع هذا الجسد النحيل الشفاف أن يحتوي سنوات الشوك تلك، التي لا يمكن احتواؤها!؟

بقيت صامتة فترة طويلة... لم تزرني بعدها! ولم تتصل بي أو يصلني منها أي رسالة على بريدي الإلكتروني! لكنني -مع ذلك- لم أتوقف عن الكتابة، أو حاولت ربما، أن أكتب شيئاً يحرضها ويثير ذاكرتها المخفية؛ فتقمصت شخصية رسام منسي وكتبت ما يقارب الصفحتين، تحت عنوان خبيث هو:

فرع الموت 201، عليها تتذكر فروع الأمن المرقمة...

«منذ وقت طويل -يا سيدتي- لم أر أحلامًا ملونة.
باتت أحلامي كلها بالأبيض والأسود؛ وفي أفضل الأحوال
يهيمن عليها لون واحد هو الرمادي أو الأصفر العكر. لست
أدري لماذا وكيف يمكن أن يحدث هذا، وأنا رسام توضّح
لوحاته بالألوان الحارة المزركشة! عندما أصبح من رمادي
تصحو معي ألواني الزاهية وتتجمع حولي مثل باقة في
مهرجان الربيع. لوحاتي -التي تلتصق بالجدار- شبابيك
مفعمة بالضوء والزيت والألوان الصاخبة، ومع ذلك تنسل
أحلامي خلسة في العتمة، وتفتك بي.

تفاقم وضعي حتى بتّ أشعر أني مصاب بمرض
الفصام! هل يعقل أن يكون الإنسان متفائلًا في النهار،
متشائمًا في الليل؟! لا أدري، لكنني تأكدت من ذلك عندما
اتصل بي -بعد بزوغ الفجر بقليل- رجل غامض من فرع
الموت 201 (هكذا قال)... جاءني الصوت واضحًا ذا نبرة
محايدة: نحن فرع الموت 201، عليك مراجعتنا قبل غروب
الشمس. هل تأتي بنفسك، أم نرسل دورية لجلبك؟

قلت: لا، سأحضر بنفسني، وللتو...

صحوت... ظننت أنه محض حلم، فنمت من جديد،

لكنه اتصل ثانية!

اتصلَ أم لا؟ اتصل، وكنت -حينها- أجلس تحت شجرة وحيدة خضراء، يحاصرها خريف رمادي يابس. السماء، وحتى الأوراق المتساقطة، تحوّل لونها الرصاصي إلى الأصفر الداكن! تحول أم لا؟ تحول... وطلبت منهم العنوان، فقالوا: عليك أن تحضر كفنًا أبيض ومجرفة سوداء، وتمشي بلا توقف حتى تصل! ستقودك قدماك إلى المكان.

كفن ومجرفة وقدمان. لا بأس! يعلمون أنني لن أهرب. وكيف أهرب وقد دخلت سن اليأس، ولا أملك أجرة الطريق؟! حتى بيتي، المكتظ بالألوان والريش، كان مستأجرًا.

ودّعت زوجتي وألواني وبيتتي، ومشيت. (كنت متزوجًا على ما أذكر). حملت المجرفة بيدي. وضعت الكفن على عاتقي ومشيت... منذ خمسين عامًا وأنا أمشي، لكنني لم أصل حتى الآن إلى ذاك المكان.

كان الوقت حرارة مرتفعة وشمسًا مائلة. ظهرت فوقي ذبابة كبيرة سوداء ذات مروحة، تشبه حشرة معدنية... صم أذنيّ ضجيجها الهائل. مذ خرجت من البيت وهي تحوم فوقني وتتحرك أمامي متجهة نحو الشمال. تغيب،

ثم تظهر من جديد، كما لو أنني ربطتها بخيط، كما لو أنها تدلني على المسار، تاركة صوتها العجيب يطنّ في أذني.

رجل غريب كان يقف في منتصف الطريق؛ يحجب بكفه الضوء عن عينيه وينظر إلى السماء الغبراء، مشيراً بيده الأخرى إلى تلك الحشرة صارخاً بأعلى صوته: «اقصف، لك اقصف، ماذا تنتظر؟! لا تترك أحداً من هؤلاء العرصات⁽¹⁾!». عن أي «عرصات» يتحدث؟! اقتربت حاملاً بيدي المجرفة فابتعد بسرعة عن طريقي؛ ظن أن المجرفة ملوثة بالدم. ابتعد وهو ينظر إلى الحشرة الطائرة... خطر لي أن أناديه، أن أسأله عن مكان الفرع 201 لكنني عدلت، لأن الناس يتجنبون الحديث مع هرمٍ يحمل كفنا ومجرفة...

أمسيت عجوزاً طاعناً في العمر ولم أصل. كنت أستأنس بتلك الذبابة، وأستمد القوة من دوامة صوتها الهوائي، لكن قدمي لم تعودا قادرتين على حملي، أو إرشادي إلى المكان الصحيح. كنت أظن أنه غير بعيد عن فرع أمن الدولة، أو فرع فلسطين... لم أفكر، أو يخطر ببالي أن أستريح قليلاً؛ فقد تأخر ويغضب مني رئيس فرع الموت هذا. ولم أجرؤ حتى على استئجار سيارة أو حافلة نقل. قالوا لي: عليك أن تمشي، وأرسلوا إلي حشرة تراقبني وتدلني على الطريق، فمشيت

1 - العرصة: الديوث، أو الذي يحقق مصالحه الدنيئة بأساليب ملتوية

ومشيت... لم تستوقفني الحواجز أو يطلب أحد هويتي.
كان الناس يبتعدون عن طريقي وهم ينظرون إلى كفني
ومجرفتي...

لكنني أخيراً توقفت على الرغم مني، ولم أعد
أستطيع المزيد، فما إن رأيت الشجرة الخضراء حتى جلست
تحتها. ليغضب مني فرع الموت ورئيسه. دعنتني الشجرة
كي أجلس قليلاً تحت ظلالها، فوضعت الكفن في حضني
وجلست... كانت شجرة وحيدة، تشبه تلك الخضراء التي
يحوط بها خريف رمادي كامل، حتى أوراقها الساقطة
تجمعت حولي. تحول لونها الأصفر أيضاً إلى رصاصي غامق.
الفارق الوحيد أن أحداً ما حفر بآلة حادة، على جذعها
القاسي سهماً يخترق قلباً مستديراً، وقد كُتب تحت القلب
عبارة: فرع الموت 201.

انتفضت. يا إلهي! لقد وصلت! وسقطت عن
السرير...

لم يكن كابوساً حقيقياً أو محض حلم. سقطت بالفعل
عن السرير، وسمعت صوت ارتطامي بالأرض. كان سريري
عازياً، بلا قوائم، يدير وجهه نحو الجدار ويقف على ساق
واحدة، مثل صليب فقد يديه وثيابه، وقد سقط غطاءه في
حضني مثل كفن أبيض.

لوحاتي -أيضًا- كانت معتمدة....»

كان ألمي كبيرًا جدًا بأن يعجبها هذا المقطع ويحرك مشاعرها، لكنها لم ترد على ما كتبت! مضى وقت طويل ولم تفعل! وأظن أنها لن تفعل أبدًا... وإذا أردتم الحق، وهذا كلام غير قابل للنشر: كنت حريصًا على نيل إعجابها، وربما رضاها... لكن، يبدو أن حرصي على ترويضها كان أكبر! نعم، ترويضها... لا أدري إن كانت هي الكلمة المناسبة، لكنني لم أجد لها بديلًا... هل كنت مهتمًا بقصتها أم مقتونًا بها؟ لماذا ارتجفت أحشائي عندما غادرت، ولماذا رحّت أسأل، بعد ذلك، عن أصلها وفصلها وتفاصيل حياتها؟! لا أنكر أنها تركت انطباعًا مؤثرًا وعميقًا لدي، منذ لقائنا الأول، هو أقرب إلى تلك الذكرى التي تتغلغل في دماغك، ولا تستطيع نسيانها... حاولت -ما استطعت- أن أفهم السبب! أن أفهم نفسي! هل هو حب من أول نظرة، أم شغف عنيد؟ هل هي شهوة عارمة تأججت، في عمر خمدت فيه الشهوات؟ ما هو السحر الذي جذبني إليها، وجعلها تسيطر على حياتي وروايتي؟ كنت أكتب بهدوء ومتعة كبيرة، رواية جديدة تشبهني، لكنها منذ أن طرقت بابي غيرت مسار حياتي، وخلال مدة لا تزيد عن فنجان قهوة، خلخلت كياني...

كابرت كثيرًا، حاولت إقناع نفسي أنها امرأة مثل

الأخريات... ما هو المثير المشتبه فيها؟! لا شيء خاص أو لافت أو شبق، امرأة جميلة لا شك؛ لكنها نحيلة أكثر مما يجب، وأنا أحب الممتلئات! شعرها قصير وصدرها أعجف وحوضها ضامر... أما مؤخرتها، فلم تسمح لي الظروف بدراستها، ولا أذكر أنها لفتت انتباهي على أي حال! ما هو إذن سبب حضورها المستبد هذا؟! لماذا بتُّ أتذكرها وأعشق كل تفصيل فيها الآن؟! ولماذا أصبحت لجوًّا فاقد الصبر، لا طاقة لي على انتظار ردها؟! لكنها لم ترد ولو بكلمة واحدة، مضى شهر كامل دون رد! ووجدت نفسي مرغماً - لا أدري لماذا- على إرسال نص آخر لا علاقة له بروايتي أو روايتها، نص غير كامل، كتبته منذ وقت بعيد، ثم ركنته جانباً، كي أعيد النظر فيه، وهو بعنوان كلب بن كلب، حيث أقمص شخصية كاتب معروف يخاف كلباً مربوطاً، دربوه على فظ المظاهرات:

«منذ أكثر من ثلاث سنوات وأنا أتساءل: لماذا لا يقومون باعتقالي! فأنا معارض معروف، وسجين سياسي سابق، وناشط اجتماعي معاصر، ولساني طويل... شاركت بالمظاهرات منذ الشهر الأول، وقلت: «واحد، واحد، واحد، الشعب السوري واحد»، وقلت «يلي بيقتل شعبو خاين، و«الشعب السوري ما بينذل»⁽¹⁾... قلت كل ذلك، وشاركت

1 - "من يقتل شعبه خائن" و"الشعب السوري لا يُذل"

بكل الواجبات اتجاه الشهداء والمعتقلين، وأملك كل الأسباب التي تخولني أن أكون معتقلاً... اكتفوا بمنعي من السفر وعدم تجديد جواز سفري، حتى أراجع الفروع الأمنية. وكثيراً ما كان الأحبة والمقربون مني ينصحونني أن أخفف من لهجتي ونبرتي في ما أنشره على صفحتي في الفيس بوك، وغيرها من صفحات التواصل الاجتماعي... ولا أخفيكم أنني كنت -في قرارة نفسي- أخاف الاعتقال! طبعاً أخافه، فقد جربته ذات يوم، لكنني لم أجرب القنص من فوق ظهر مؤسسة حكومية أو من خلال نافذة غامضة. لذلك كنت أسدل الستائر -أيضاً- كي لا يحاول أحد أن يتسلى بقنصتي، وبخاصة في عتمة الليل البهيم. لكن فرحتي بالثورة وأملتي بالتغيير، وإعجابي الشديد ببسالة الشبان السوريين، المستعدين للموت، الهاتفين للحرية والكرامة في شوارع دمشق وحاراتها، جعلني أكابر وأنتصر -دوماً- على تلك المخاوف والهواجس العميقة.

كنت أنتظر قدومهم كل يوم وكل ليلة. هم أو غيرهم من الرجال المدججين بالسلاح، الذين يركلون الأبواب بأقدامهم، ويقتحمون البيوت -مع كلابهم- دون إذن. كم مرة طُرق بابي أو باب جيراني، بعنف وهمجية، فقلت: أتوا، ليتبين لي أن الطارق هو بائع الماء أو أحد المحتاجين! وكم مرة أعطيت هويتي للحاجز وتوقعت أن يقوموا باعتقالي

فور رؤيتهم صورتي أو قراءة اسمي! وكم مرة اعتقلوا أو اختطفوا رفيقًا لي، أو سلّموا جثة صديق ناشط مثلي، قتلوه تحت التعذيب، وقلت جاء دوري! لكن شيئًا من هذا لم يحدث حتى الآن؛ بل حدث ما هو أسوأ ربما...

كنت منكبًا - ذات ليلة - على كتابة قصة قصيرة، عن كلب هاجم رجل أمن، كان يدربه على التصدي للمتظاهرين؛ بعد أن أخضعوه لدورة في مكافحة الشغب؛ فسمعت - صدفة ربما - صوت كلب حقيقي يتردد عبر نافذتي المغلقة! في البدء ظننت أنه وهم من أوهام الحالة التي أعيشها، لكن تبين أن الأمر أعقد من ذلك بكثير...

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وكان من الطبيعي أن تسمع أصوات كلاب سائبة في مثل هذا الوقت، وبخاصة عندما تتوقف أصوات القذائف والرشاشات والحوامات والصواريخ... لكن هذا الصوت لم يكن نباحًا أو عواء ذئب، بل مقاطع صوتية عشوائية، هي أقرب إلى الأنين والتوسل والبكاء؛ منها إلى نباح الكلاب! أصوات متقطعة رفيعة واهنة، توحى أنها لجرو صغير جائع، أو ربما لكلب جريح...

توقفت عن الكتابة وحبست أنفاسي. كان الصوت

قريبًا، يأتي من الخارج بالفعل، وليس من داخل رأسي! لم أكرث - في البداية - لهذه المصادفة العجيبة. حاولت أن أنسى وأتابع الكتابة، لكن الصوت راح يعلو ويخبو وينشج ويتذبذب، مشحونًا بالعواطف والمشاعر الإنسانية؛ كما لو أنه يناديك أو يستجير بك، طالبًا حمايتك... ولم أتوقع أن يكون هذا المخلوق قريبًا إلى هذه الدرجة. نهضت واقتربت من النافذة كي أفهم ما الذي يحدث! كنت أعيش في الطبقة الثانية من البناية، وكان الضوء مطفأ في الحي، والشارع خاليًا تمامًا من المارة، وبالكاد تبين لي، على ضوء نافذتي الخافت، أنه كلب كبير جدًا، يدور حول نفسه، محاولاً أن يخفي توتره وغضبه. توقعت أن أرى إلى جواره رجلاً! لكن عندما فتحت زجاج النافذة ودققت في المشهد، اكتشفت، على الرغم من العتمة، أنه قد رُبط وحيداً إلى عمود الكهرباء المقابل لشقتي! وسرعان ما شعر هو بوجودي فكف عن الأنين والدوران، ووقف في مواجهتي متحفزاً، ولمعت عيناه في العتمة، ثم نبج بقوة وشراسة مفاجئة، متحولاً إلى وحش حقيقي... أقفلت النافذة مباشرة، ورحت أراقبه من خلف شق في الستائر السميكّة...

تبين لي أنه كلب بوليسي شرس، من نوع «جيرمان» . أسود على ذهبي، يطوق عنقه سير جلدي فاخر. له خطم

كبير أسود ولبدة صفراء، وأذنان مثلثتان منتصبتان...
راح ينظر إلى نافذتي -مباشرة- ثم يحفر التراب بإحدى
قائمتيه، ليعود وينظر نحو نافذتي، وينبح بشدة.

إنه يشبه كلب قصتي تمامًا!! لكن... ما الذي أتى
به إلى هنا؟! من الذي ربطه في هذا المكان؟! ولماذا ينظر إلى
نافذتي تحديقًا، تلك النظرة المتحفزة المتوعدة؟! ومع أي
أحب الكلاب، لم أشعر بالخوف يومًا، كما شعرت في تلك الليلة
المظلمة. أغلقت الستائر بإحكام، وأطفأت الضوء، وأيقظت
زوجتي التي كانت تنام مع الأطفال في غرفة النوم، وقررنا
-مباشرة- أن نخفي كل ما نملكه من وثائق وسجلات ونقود،
تعود لجمعية مدنية محلية، كنا نعمل فيها، تهتم بإغاثة
النازحين الذين دُمرت بيوتهم، وهربوا من الحرب في الغوطة.
كنا نؤمن لأطفالهم الحليب والحفاظات والحقائب المدرسية
والدفاتر والأقلام، وكان ذلك ممنوعًا ويعتد جريمة من
جرائم الإرهاب وتمويله. قمت بمسح كل ما أملكه من أشعار
وقصص ومقالات في كومبيوتري. أغلقت حسابي وحساب
زوجتي في الفيس بوك والتويتر والسكايب. كانت زوجتي
أقل توترًا مني، لكنها مع ذلك دسّت علم الثورة في كيس
أسود، ورمت به -عبر شباك المطبخ- إلى المنور...

استمر الكلب في العواء. قالت زوجتي إنه كلب، وربما

رُبط هنا بالمصادفة. وقلت: لكنه كلب «جيرمان» من نوع «FARFESH» يا عزيزتي! الكلب ذاته الذي أكتب عنه!! من سيربط كلبًا بوليسيًا نادرًا، في عمود كهرباء، أمام بنايتنا تمامًا! وبعد منتصف الليل! ولماذا يفعل ذلك!؟

اختلسنا النظر عبر الستائر، ورأيناه ما يزال هناك... يجلس على ذيله ويرفع خطمه الأسود مستنفرًا، وقد تناول كثيرًا على قائمته الأماميتين، حتى حسبناه رجلاً ينظر إلينا؛ لو لم ينبج من جديد.

لم يكن ذلك كابوسًا! كنت واثقًا من ذلك؛ مع أن حياتنا تحولت إلى كوابيس سريالية، في الليل وفي النهار، تتخللها بعض الأفعال الواقعية العادية، التي لا يمكن حشرها مع فصيلة الكوابيس، مثل شرب الماء والأكل والدخول إلى الحمام... لكن ما إن قُرِع باب بيتنا بتلك القوة؛ حتى تحول الأمر كله إلى كابوس حقيقي... تبعه مباشرة صوت حركة وقرقة في المطبخ... تقدمت نحو الباب بحذر... ثم ظهرت زوجتي وهي تحمل طنجرة الحليب الفارغة... نظرت إلي مندهشة وسألتني بصوت ناعس: «ما بك! ألم تنم بعد؟! هل أزعجك هذا المتخلف؟» لم أستطع الجواب... طبعًا... اكتفيت بالإشارة إلى الباب متسائلًا، فقالت ساخطة: «إنه بائع الحليب... كم مرة قلت له أن يقرع الباب بهدوء!..

تسمرت في مكاني... ولم يكن أمامي حل آخر! أصبح
الكابوس مزدوجًا (كابوس داخل كابوس)، فأنا لست
متزوجًا وليس لدي أطفال ولا غرف نوم ولا طناجر حليب!
وأكبر دليل على ذلك هو أنني أنام وأكتب وحيدًا في غرفتي
البائسة... ولذلك، لم أجرو حتى على الاقتراب من الباب...

دمشق، فجرًا

2014.10.3

لكنها - هذه المرة أيضًا - لم ترد! ربما لم يعجبها ما
كتبت!

كنت بحاجة إلى امرأة، كي أستطيع كتابة روايتي،
وكنْتُ أعلم جيدًا أن هذه الرواية لن يكون لها أي معنى،
بمعزل عن تلك السنوات المثيرة التي عاشتها... كنت أمتلك
فكرة غامضة حولها، وكنت بحاجة ماسة لأن تكتب هي
عنها... وكدتُ أفقد الأمل، لكنها بعد مرور أكثر من خمسين
يومًا؛ وعندما كنت على وشك النوم، اتصلت بي وسألت
عني وعن الرواية!

أخبرتها - برود - أنني توقفت عن الكتابة منذ مدة
طويلة، فغضبتُ، وكادت تشق شاشة الكمبيوتر وهي
تصرخ ماذا! كيف!؟ من أذن لك بهذا!؟ لماذا توقفت!؟ ولأول

مرة، شعرت أنها متعاطفة معي، تثق بي وبموهبتتي ... قلتُ لا أدري! ربما فقدت الارتباط بهذه الرواية، لسبب ما، أجهله! ثمة شيء ناقص فيها...! إنك تخفين عني أمرًا، أنا بأمس الحاجة إليه! هذه الرواية تحتاج إلى بوح وشجاعة امرأة، فإما أن نكتبها كما يجب، أو نتوقف عن ذلك، فما الرواية إلا ذلك المنسي، أو الكشف عما نرغب في نسيانه...!

صمتت ثانية! بدت كما لو أنها لم تقرأ ما كتبت! ولم تحاول إقناعي بضرورة الاستمرار في الكتابة (كما توقعتُ أن تفعل)؛ بل أرسلت -بعد فترة وجيزة- ملفًا يحتوي على مقطع كبير «ناجز»، يبدو أنها كتبتة خلال فترة انقطاعها الطويلة... واستبشرت خيرًا، لكن المقطع -هذه المرة أيضًا- كان عن جفان وفرج، وليس عنها هي...

لا أدري كيف اخترعت هذه الحكاية! فمع ثقفتي ومعرفتي الأكيدة، بأن جفان، وكذلك فرج، ليسا أكثر من شخصيتين وهميتين، إلا أن المقطع كان جميلًا ومناسبًا جدًا للرواية، وهو قبل هذا وذاك، منسجمًا تمامًا مع ما كتبتة أنا خلال خمسين يومًا.

× × ×

كان يجب أن أموت، لأني فقدت إنسانيتي. تكنوا من إذلاي وكسر إرادتي وكرامتي، خلال بضعة أيام وليلة.

ملأت فرع التحقيق العسكري بصراخي الهستيري،
 وشحذت منهم الشفقة والرحمة... جريمة التظاهر والتهاف
 للحرية، لم تعد تكفيهم. اعترفت لهم بجرائم لم ارتكبتها،
 وجرائم أخرى أنوي ارتكابها في حياتي، بالاشتراك مع
 عصابة مكونة من أبي وأمي وإخوتي الصغار...! طالبوني
 بالمزيد. ولم أعد قادرًا على التحمل أكثر. جروحي تقيحت
 وبدأت تنزّ، والسجان صار يضع على أنفه كمامة، قبل فتح
 زنزانتني. تمزق جلد قدمي إلى نتف، بعد أن تورّم، وانفجرت
 منه كريات الدم والقيح. لم أعد أستطيع الوقوف. وما عدت
 أستطيع أن أحبو على أربع، أو أزحف على بطني، كما كنت
 أفعل من قبل. سحقوا ركبتي. علقوني على السلم. كسروا
 ظهري بالكرسي القلاب. وصار الجلاد يشحطني شحطًا إلى
 غرف التعذيب مثل كيس ممتلئ بالعظام والقيح. أحضروا
 أخيرًا أوراقًا بيضاء، لوثوا أصابعي بالخر الأزرق، وطلبوا إلي أن
 أبصم عليها، فبصمت. هم من سيسجل الجرائم المنسوبة إلي
 كلها، والتي ستسهل على أي قاض عادل، أن يحكم بالإعدام
 علي.!

لو أستطيع الآن إيقاف قلبي عن العمل، لفعلت... لو
 أستطيع ثقب رئتي أو دق عنقي بيدي، لكان ذلك أفضل
 طريقة للموت الذاتي الهادئ. لكن أعضاءنا الغبية بلا
 أخلاق أو رحمة، تعمل دون إرادة منا، ولا تشعر بالخجل أو

الذل مثلنا... لا يهمها إن كنتَ تعسًا، متفائلًا أو متشائمًا، شجاعًا أو جبانًا. لا يهمها إن كنتَ مسلوخًا أو محروق الوجه والأذنين بالكهرباء أو لهب الأوكسيجين... وظيفتها الوحيدة أن تبقيك حيًّا حتى لو تعفن لحمك. والموت لا يأتيك، لا يأتيك، ولا تستطيع أنتَ أن تذهب إليه متى شئت، ليس لأن الحياة مقدسة، مصانة بإرادة عليا، لا يحق -حتى لصاحبها- الاعتداء عليها؛ بل لأنك لا تملك الوسيلة إلى الموت.

«والله لخليك تشتهي الموت وما يجيك يا حقير»...

قالها المحقق وفعل. ولم أصدق ما قاله، حتى قادتنى الوحشية إلى هذه الدرك من الإحباط والقنوط والاشتباه بإنسانيتي. من كان يظن أن هذا المبتسم الصلب المفعم بحب الحياة والتفاؤل، سيشتهي الموت يومًا ولا يجده؟! لم يكن لدي سَمٌّ أو حبل أو أي أداة حادة. صادروا كل الأدوات التي تسهّل علي الموت. لو كنت أملك مشبك شعر، لما اكتفيت بحفر عيني، كما فعل «الملك أوديب». صادروا ربطة عنقي وحذائي ونظارتي وحزامي وساعة يدي... ووضعوني عاريا في زنزانة عارية ضيقة، لا أستطيع حتى تحطيم رأسي على جدرانها...

عبارة أخرى قالها المحقق ولا أستطيع نسيانها:

«والله لخلي الذبّان الأزرق ما يعرف وينك يا كلب»...

هذه العبارات لم تكن مخصصة لي وحدي. قالها المحققون لجميع الضحايا. وقبلت التحدي، مع أنني لم أكن أفهم ما هو المقصود بحكمة الذباب تلك. ولم يخطر على بالي أن يكون ثمة ذباب أزرق! رأيت فراشات من كل الألوان: بيضاء صفراء بنفسجية حمراء سوداء... لم أسمع بالذباب الأزرق من قبل. علمت في ما بعد، أنه ثمة ذباب أخضر -أيضاً- مختص بالمقابر والجثث...

كان يجب علي أن أتحوّل إلى جثة بأسرع وقت، وليفعل بي الذبّان الأزرق أو الأخضر ما يشاء... تلمست عنقي وأوردتي. لن أستطيع خنق نفسي بيدي، أو قطع وريدي بأسناني. يحتاج ذلك إلى وحشية لا أملكها. وهؤلاء ليسوا يهوداً كي تحاربهم بالإضراب عن الطعام. هؤلاء شركاؤك في الوطن، لكنهم خبثاء أشرار بلا شرف أو ضمير. وهم أسوأ من الوحوش الضارية، ويملكون خيالاً أوسع من خيال إبليس. إذا لم تأكل قطعة الخبز اليابسة التي يرمونها إليك، يتضاعف عذابك، وقد يجبرونك على ابتلاع فأر أو صرصور... غير مسموح لك أن تموت مرة واحدة، وعندما تطلب. حاولت كثيراً أن أفعل ذلك وفشلت...

لكني - ذات مرة - سمعت حفيفاً، في آخر الليل!

كنت وحيداً، لا رفيق لي إلا القوارض، ولا قريب سوى
 الحيطان اللزجة والعتمة... آلامي المبرحة تمنعني من النوم،
 وكنت أود لو أنام إلى الأبد، قبل شحطي إلى التعذيب من
 جديد. ظننت في البداية أنه حارس يصيخ السمع ليطمئن
 إلى أنني حي. كان الحفيف خجولاً مرتبكاً خائفاً مثلي، لكنه
 يجتهد... تحفزت أخيراً وزحفت نحو الباب متردداً. لم يكن
 الصوت قادماً من الممر، بل من خلف الجدر الكتيمة... وعلى
 الرغم من العتمة، تمكنت من تحديد المكان، ورحت أتلسمه
 بأصابعي، وأنا لا أدري ماذا علي أن أفعل... وكم كانت
 دهشتي كبيرة عندما شعرت بمسار رفيع يخرج من ثقب
 في الحائط، وينكز كفي، ثم يبرز بالتدريج كما لو أنه
 يقول لي اسحبني... تراجعت إلى الخلف، ولم أجرؤ على لمسه.
 تحسست المكان ثانية، لكن المسمار اختفى فجأة، وخرج من
 الثقب هواء حار. وضعت أذني على المكان، أحد ما خلف الجدار
 كان ينفخ الهواء من أجلي. وبدأت أسمع من خلال الثقب
 أصواتاً وهسهسة، لم أكن أتوقع سماعها. كانت تقول أشياء
 غير مفهومة. الشيء الوحيد الذي فهمته هو أنني لست وحيداً
 معزولاً عن هذا العالم، كما كنت أظن. لم يكن الثقب حديثاً.
 وتبين أن المكان مليء بالثقوب والأرواح... برز المسمار مرة
 أخرى، وتقدم في الثقب بسهولة؛ حتى سقط على الأرض.

لا أدري من الذي أرسله! لم يكن طويلًا، كما يجب لعبور جدار سميك. ثمة مسمار آخر، أو شريط معدني، كان يدفعه كي يصل إليّ. مسمار حقيقي صلب مدبب ودافئ، لكنه لم يكن صالحًا أبدًا للانتحار. لأن قوة جديدة دبت في جسدي وروحي.

تأكدت يومها أن الجدار مهما كان سميكًا ومتينًا، لا بد أن يكون فيه ثقب أو خرم ما. وفهمت أنه يجب عليّ بدوري، أن أبدأ بثقب الجدار المقابل. وبدأت...

هذا المقطع وجدته بين أوراق جفان المنسية، التي تركها في حضني...

لا أعرف الشيء الكثير عن طفولته! كان بارعًا في رسم العيون، وتم قبوله في كلية الفنون، بناء على ما قدمه من مشاريع رسمها بقلم الرصاص والفحم، مع أنه أتقن التلوين، بأنواعه وتقنياته كلها، وبخاصة المائي، ومع أن مشروع تخرجه كان لوحة زيتية مذهشة، غير أنه ظل يحنّ إلى الرسم بالأبيض والأسود... لكنهم أخذوه بغتة، وباتت مشاريعه كلها سوداء... صمد بضع سنوات في الاعتقال، وهذه السنوات بالتحديد، كانت كفيلة بتحطيمه! حتى فرج الذي كانت مأساته أكبر من أن تُحتمل، لم يتمكن من

مساعدته، عندما قرر أن ينفصل عن هذا العالم ويغيب.

بعد نقلهما من سجن تدمير المرعب، واجتماعهما في سجن صيدنايا العسكري، رآه لأول مرة في ساحة التنفس، نظر إليه مطولاً، كما لو أنه يعرفه منذ مدة طويلة! ارتبك الاثنان، ثم، لا أحد يعرف لماذا تعانقا... كان فرج قد نُقل للتو إلى جناح جفان، مع مجموعة من الأحداث والمقعدين من جماعة الإخوان المسلمين. لم يعرف أحدهما الآخر طبعاً، ولا يربطهما أي رابط، حزبي أو عائلي؛ ففرج كان مغباً في مهجع خاص بالأطفال في سجن تدمير، ولا أحد يستطيع أن يصدق، أن جفان تعرف إليه من خلال صدى صوته ذاك، الذي سمعه في فرع التحقيق العسكري، منذ خمسة عشر عاماً مضت، وما زال يطنّ في رأسه حتى الآن!

كان -حينها- شاباً وكان فرج طفلاً صغيراً، أمضى ست سنوات من طفولته، في زناينة للنساء! ولد في الفرع، بعد شهرين من اعتقال أمه. كانت في شهرها السابع -كما قيل-، عندما دهموا بيتها واقتادوها رهينةً، عوضاً عن والده الذي اختفى فجأة في مطلع الثمانينات من القرن العشرين... وعندما اختفت الأم بدورها من فرع التحقيق (ويقال إنها اغتصبت وقُتلت تحت التعذيب)، وضعوه في زناينة النساء، ثم نقلوه بعدها إلى سجن تدمير العسكري، ووضعوه في ذلك

المهجع المنسي الخاص بالأطفال.

كان اسمه فرج، ويقال إن أمه لم تكن معروفة، ولم تكن حاملاً، بل صبية جميلة في العشرين من عمرها، تدرس الهندسة في جامعة دمشق. اغتصبها «المعلم» أولاً، وفتح الطريق أمام عشرات الجلادين الذين تناوبوا عليها من بعده، مئات المرات.

هو لا يعرف إن كانت له أم مغتصبة وأب مجهول! لم يفكر في الأمر حينها! كل واحد من السجانين كان بالنسبة إليه أباً، يناديه «أبّه» وكل واحدة من النساء اللواتي عاش معهن، كانت أمّاً أو جدّة، يناديها «أمّه»... وعندما نقلوه من الفرع، كان الوحيد الذي فقد عشرات الآباء من الجلادين، وتسع أمهات رهينات، بعضهنّ تجاوزن السبعين من العمر... كل واحدة منهن وضعت في حضنها، وأرضعته حليباً وهمياً من صدرها الجاف، أو من خرقة مبللة بالماء والسكر، كانت تعصرها في فمه... كل واحدة حملته وشطّفته وحفظته وحكت له الحكايات وهددته، وفي حضن كل واحدة كان ينام ليلة بالتناوب، ويمنح كل واحدة منهن فرصة نادرة لممارسة الأمومة والحنان.

ويقال، إن باب الزنازة فُتح ذات ليلة، دون سابق إنذار، وأُطل أحد الحراس المناوبين، حاملاً بين يديه لفافة

بيضاء متسخة وضعها في العتبة، مع كيس صغير من السكر، وقال: «أم سعيد، استلمي»، ثم أغلق الباب وغادر مسرعاً دون شرح! وسرعان ما تلقت العجوز اللقافة وفهمت أنها تضم رضيعاً في أسبوعه الأول؛ عندما صرخ، لكنها لم تفهم سبب وجود السكر الذي كان مخصصاً لغذاء الرضيع... ضمته أم سعيد (أكبر السجينات سنّاً) إلى صدرها، وأطلقت عليه اسم فرج الله.

× × ×

ظلّ جفان يرتجف كلما سمع صدى صوته، حتى رآه يدب في الممر! لم يتوقع أن تكون القسوة غبية لهذه الدرجة! تبين أنهما زميلان! سجنا معاً، في مكان واحد تحت الأرض، اسمه فرع التحقيق العسكري، وأن ذلك الصدى الذي كان يلاً الممر هو صدى لصراخه، إنه طفل حقيقي معتقل! طفل من لحم ودم، عاش على الماء والسكر وفتات الخبز...

يومها، كان جفان في العقد الثاني، وفرج في الثانية فقط من عمره. لم يكن قد رأى شجرة في حياته. عرف البيوت والنوافذ، عندما نقلوه إلى سجن تدمر. هناك فحسب، ومن خلال النوافذ العالية وقضبان الحديد، تعرّف إلى السماء الزرقاء وضوء النهار، وسمع لأول مرة زقزقة العصافير التي تمتلك شجاعة نادرة؛ إذ تقترب وتقف على حافة نافذة

مرتفعة، لمهجع مليء بالأطفال...

فرج الله الحزين صار اسمه. أصغر معتقل على وجه الأرض! لقيط مكتوم النسب، لا أحد يعرف أباه ولا أمه. كان الخراس ينادونه «عرسا»، ولا أحد يعلم متى وكيف كبر وتعلم الزحف والمشي والكلام.

بعد الثالثة من عمره، راح يدرج بين الزنازين، إذا سمحوا له بالخروج... يفتح ذراعيه ويركض، وهو يصرخ بصوته البريء: «عرسا... عرسا...». كان الجلادون يلعبون معه ويتسلون به. لم يكن يعرف كلمة «عمو» أو «بابا».! وحدها لفظة «آبة» كان يشير بها إلى الجلادين! ثم راح يردد لغتهم؛ فلا يحفظ غير الشتائم وعبارات الزجر والتحقير: «ولا»، «حمار»، «حقير»، «عرصا»، «منيك»⁽¹⁾... أو لغة الضحايا والمعذبين: «لا...»، «دخيلك»، «ما دخلني»، «حاضر سيدي»... كانت كلمة «عرصا» تطربهم! وهو يلفظها بالسين «عرسا»، فأطلقوا عليه هذا اللقب، وسموه هكذا في سجلاتهم! وعندما أصبح في سن المدرسة، نقلوه إلى تدمر، ووضعوه في مهجع مخصص للأطفال!

من من المعتقلين لم يسمع صوت «عرسا» أو يراه خلصة من شقوق أبواب الزنازين، وهو يلبس حفاظًا رخيصًا، أكبر

1 - كلمات بذيغة جدًا باللهجة الشامية...

بمرتين من رأسه، صنعتها النساء من الخرق البالية، أو يزحف عاريًا تمامًا في الممرات، مثل فروج منتوف، قبل أن يتعلم الدبذبة⁽¹⁾، ثم ينتصب على قدميه ويمشي مستعينًا بجدران الزنازين وأبوابها؟ من منهم لم يسمع صدى صوته وهو يسدر في هذا المكان الأبكم؟! ومن يستطيع أن ينسى ذلك النداء الممطوط: «عر... ساااا...» وتأثير صده العجيب على المعتقلين والمعتقلين؟

كان ذلك أصعب أنواع التعذيب! وبخاصة على جفان. لم يكن معنى الصوت هو الأهم بالنسبة إليه، بل وجوده في هذا المكان! ما شغل باله أكثر، هو صدى صوته؛ تلك الذبذبات الآتية من الغيب، التي تصبح أكثر حضورًا، عندما تصطدم بالجدر وتتكسر على قضبان الحديد، ثم تتلاشى متأوهة... كيف يمكنه أن يرسم ذلك الصوت؛ صوت آدم الصغير، الذي طرد من السماء من دون حفاض أو خرقة، فارتطم بالأرض، بعد ولادته مباشرة؟! كيف يمكنه أن يجسد نداء طفل معتقل، يلثغ بثقة واطمئنان، ينادي الناس بفرح المقبلين على الحياة: «يا... ناا... يا... عالم... عر ساااا...» ماذا يريد آدم الصغير من هؤلاء الناس، هل يعرفهم؟ وهل هو بحاجة إليهم؟

1 - الدبذبة: مشي الأطفال على أربعة، باللغة الشامية الدارجة

كان صغيراً، والبهو واسع، وصوته هو المهيمن في فرع التحقيق! كل شيء ضيق هناك، إلا البهو المخصص للتعذيب! وكان يطيب للطفل أن يحب في ذلك البهو، بعد حفلات التعذيب، وكثيراً ما كان يلوث يديه وركبتيه بالدم...

رآه آخر مرة في الفرع عندما كان في الخامسة من عمره، وسمعه وهو يصرخ معترضاً على أمهاته التسع «ما بدي... ما بدي...» ولم يلتق به بعدها... ما الذي كان يرفضه هذا الصغير؟ ما الذي كان يريده؟! طفل جميل أشقر، شاءت الأقدار أن يرى النساء والرجال عرايا، يعلقون ويجلدون، أن يسمع صرخات الوجع الآدمي، عوضاً عن ترانيم السرير وقصص الأمهات والجدات.

أصبح الآن مراهقاً، طويل القامة، مشوق القدر، مفتول العضلات، خشن الصوت، شفتاه حمراوان، نبت فوقهما زغب كثيف. عيناه واسعتان مثل عيني عجل أرعن، بياضهما ناصع، مقوس، بلون أصداف بصّارة جوالّة، يبرق فيهما ذكاء فطري. يضئ العتمة، عندما يفتحهما دهشة، وترقص فيهما حدقتان من فحم موشحتان بعسل الصخر... أصابعه تشبه -إلى حد كبير- أصابع جفان، وابتسامته -كذلك- ساخرة مراوغة...

ما إن قال له «أنا اسمي فرج» حتى تعانقا، وانهارت الأسئلة كلها وتصدعت! عرفه للتو، عندما علم إنه كان في فرع التحقيق العسكري، وكاد يهتف «عرسا»، لكنه أحجم واكتفى بعناقه من جديد... أصبحتا صديقين تربطهما علاقة فريدة، على الرغم من أن كل منهما كان يعيش في مهجع مستقل، فجفان محسوب على «الشيوعيين» وفرج الله محسوب على «الإخوان المسلمين»، شاب منفتح تواق للعلم والمعرفة، كثير الأسئلة والتساؤل والتعجب، لدرجة أنهم لقبوه بـ «إشارة التعجب المبتسمة»! كان شبه أمي، فعلمه جفان القراءة والكتابة والخط، بالعربية والفرنسية، وكان يعشق الرسم، فأمن له الأوراق والأقلام وعلمه الرسم والنحت، وصار كل منهما لصيقاً بالآخر، لدرجة أنك لا تستطيع أن تراه بمفرده، وأخذ يناديه عمي، لو لم يعترض جفان على ذلك.

نضج خلال مدة وجيزة، وتفتقت مواهبه، وبخاصة في الحفر على الخشب، تعلم الإنكليزية وتفوق بالفرنسية على أستاذه، خلال عام واحد! حتى أن مدير السجن صار يستدعيه لتعليم أولاده أو ترجمة بعض الأوراق وعناوين الكتب المبهمة التي يحضرها أهالي المعتقلين! وكان جفان قد رفض طلب المدير، فعوقب بالعزل لمدة أسبوع، لكنه شجع

فرجًا على القبول.

راح يقرأ الكتب كلها، ويناقشها، بعد أن كان متحفظًا لا يقرأ إلا الكتب الدينية! وقد أعطاه جفان -مرة- كتابًا ماركسيًا «عشرة أيام هزت العالم» للصحفي الأمريكي جون ريد، لكنه أعاده إليه بسرعة، وقال إنه لا يقرأ مثل هذه الكتب، لأن صاحبها كافر! فأختار له كتابًا آخر هو رواية زوربا اليوناني، فقرأه بنهم أكثر من مرة، هو ورفاقه، وطلب المزيد، على الرغم من أن صاحبه نيكوس كزنتزاكس، كان «أشد كفرًا ووقاحة» من الأمريكي جون ريد، لكن هذا اليوناني الساحر، كان يعرف كيف يهدم الحواجز بين رواياته والناس الذين لا يشبهونه ولا يتفقون معه.

ذات يوم، في ساحة التنفس، أمسك جفان برأسه فجأة، وراح يدور حول نفسه وينحني نحو الأرض، دخل مسرعًا إلى المهجع، قبل أن يسقط، ولحق به فرج متلهفًا...

كانت نوبات هذا الوجع المفاجئ، قد تكررت مرات عديدة قبل الآن، لكن جفان كان يصبر ويكابر، ويحاول جاهدًا الاحتفاظ بهيبته، والمحافظة على سره، لكنه اليوم -ولا يعرف لماذا- وجد نفسه مدحورًا مرغماً على كشف سريرته لفرج!

بدأ الوجع منذ أن سمع صوت «عرسا»... منذ أن رآه هناك، يزحف فوق الدم! ولم يشفى منه... تفاقمَت نوبات الوجع بعد نقله إلى تدمر... كان يخفي الأمر عن رفاقه، فينزوي ويصمت، كي لا يلاحظ أحد ضعفه، علماً أن الجميع قد سمع ذلك الصوت ونسيه مع الأيام، لكن ذهوله لم يكن بإرادته؛ بل بقوة تفوق طاقته، تجعله يزم شفّتيه وعينيّه، ويكاد يبتلع لسانه ويختنق... فإن سد أذنيه هاجمته الصورة، وإن أغمض عينيّه سمع صوته ورآه بشكل أوضح...

نظر فرج بخوف إلى وجه جفان المشوه وعينيّه الزائغتين، وراح يبكي حائراً مثل طفل: «جفان... عمي جفان... ما بك؟!» كان المهجع فارغاً، لكن جفان حشر كتفيه في الزاوية وتكور على نفسه، كجنين مكسو بالطحالب!

اعترف وهو يرتعد، ويدير وجهه نحو الجدار، أنه رأى طفلاً صغيراً -عندما كان في فرع التحقيق- يحبو فوق البلاط الملوّث بالدم... وأنه سمع صوته... وما زال الصدى يهاجم جمجمته، بين حين وآخر... ويدق... يدق... يدق مثل مطرقة من اللباد على صنج نحاسي كبير...

لم يكن فرج يعلم أنه هو المقصود، وأن هذا الحديث القصير الذي دار بينهما، سيكون قاتلاً لصديقه! وكيف

يدرك ذلك وهو يعتبر جفان نموذجًا للصبر والصمود والوعي. إنه القدوة بالنسبة إليه! النافذة الوحيدة التي أطل من خلالها على العالم... عندما التقى به، شعر أنه ولد من جديد... وكى يخفف عنه الألم، تساءل مازحًا: وماذا أقول أنا إذًا؟ لقد ولدت في فرع التحقيق العسكري، ولا أعرف من هو أبي، ولا أمي؟ كانوا ينادونني «عرسا»، لا أذكر من سماني فرج الله! ربما واحدة من تلك الأمهات اللواتي كنت أعيش معهن في مهجع النساء... هذا سر لا يعرفه أحد غيري! عندما نُقلت إلى سجن تدمر، سألتني هناك عن اسمي، قلت لهم «عرسا»! فضحكوا كثيرًا، ثم أمسك بيدي شرطي كبير أحمر، وأدخلني إلى مهجع خاص بالأطفال! كنت أصغرهم سنًا وحجمًا! التهمة الموجهة إليهم، هي تلقي دروس فيزياء وكيمياء ورياضيات في أحد الجوامع، وعلى أيدي أساتذة من الإخوان؛ أما تهمتي، فلم تكن معروفة... ربما بسبب اسمي! وربما ضموني إليهم لأنهم لم يجدوا مكانًا آخر يضعوني فيه! لم أكن أعلم ما معنى «جامع» ولا إخوان... كم كنا نتمنى لو تحولوا مهجعنا إلى مدرسة، لكنهم لم يفعلوا... كانوا ينقلون من بلغ منا مبلغ الرجال إلى مهجع للكبار، وعندما كبرت نقلوني إلى هنا...

كان جفان يستمع وهو يضغط رأسه بكلتا يديه، كي لا يتفكك، وفجأة، صرخ كالمجنون: «بس... بس...»

خلص... بعرفك أنا... عرفتك من لما شفتك... بَعْد هيك...
بَعْد... دفعه جانبًا، ثم خرج من المهجع هائجًا وهو يصرخ
مثل ذاك الطفل رافعًا يديه: «يا ناث... يا عالم... أنا عرسا...»
عرسا أنا...»

كان باب الجناح مفتوحًا على ساحة التنفس؛ لكن
جفان لم يخرج إلى الساحة، بل هجم على أحد أفراد السخرة
الذين يشطفون بهو السجن، بماسح ذات عصي طويلة؛
فاستولى على عصاه، ووقف في منتصف البهو، متحدثًا،
خارجًا عن طوره، ثم راح يهتف والزبد يخرج من فمه: «يا
أولاد القحبة... يا شراميطة... كس أختكم على أخت مفتي
الجمهورية... ولك طز فيكن وبرئيسكن الجحش يا قوادين...
والله لألعن أبوك يا عرصات... ولك خذوا... خذوا...
خذوا! ووجه عصاه نحو الحراس، وراح يطلق عليهم، من
فمه، وابلًا من الرصاص، حتى القوا القبض عليه...

- 5 -

مقطع جميل جعلني أصدق حكاية هذا الثنائي
 الغريب (جفان وفرج الحزين)! أعجبتني هذه المفارقة،
 عندما أراد فرج أن يخفف عن جفان فدفعه -من حيث لا
 يدري- إلى الخروج عن طوره! أنه يشبه -إلى حد كبير-
 بعض الحالات التي وصفتها في قصصي عن المعتقلين... جلّ
 ما كتبته في السابق، كان ينتمي إلى هذا العالم الذي سموه
 «أدب السجون»! وكنت قررت أن أخرج من هذه الدائرة
 الجهنمية إلى فضاء أرحب، لكن القدر -ربما- قادي إلى هذه
 المرأة التي عرفت بالمصادفة أنها لم تكن معتقلة، بل زوجة
 ضابط كبير من ضباط الأمن، تم ترفيعه إلى رتبة لواء شرف،
 بعد مقتله، في ظروف غامضة، عام 2012...

لم أكن أعرفها من قبل، فوجئت برسالة منها، ترغب فيها أن تتعرف إليّ، وتقول إن لديها حكاية مخيفة، تريد أن تكتبها كي تروح. وباعتباري كاتب روايات ومسلسلات، فقد وصلني قبلها الكثير من هذه الرسائل النسائية التي تفضي -عادة- إلى سرير سهل، يخفي تحت غطاءه الرقيق مشروع كتابة مستحيل!

لكن اسمها الغريب «طهران زهر البان»، لفت انتباهي حينها، وما أدري -حتى الآن- إن كان اسماً حقيقياً أم مستعاراً، وهل هو مأخوذ من الطهر أم تيمناً بعاصمة الجمهورية الإسلامية «تهران»! ظننت -بدءاً- أنها فارسية، لكن تبين أنها عربية بامتياز، تسكن في مكان محترم بدمشق. ولم أكن أعلم أنها شخصية إشكالية! حذرتني منها من دلّها علي، بعد تورطي معها! وطلب إلي أحد الأصدقاء عدم الاقتراب من عش العقارب هذا! وعندما استغربت كلامه؛ كشف لي عن اسمها الحقيقي، وقصة حياتها الغامضة، واسم زوجها المرحوم، وكيف قتل بتفجير غامض في دمشق... لم أصدق ما سمعت، وزادني هذا إصراراً على فكرتي، فما الذي تحتاجه الرواية أكثر من امرأة تريد أن تبوح بحياة ملتبسة كهذه؟! لن أذكر اسمها الحقيقي طبعاً، فقد يُعد هذا خيانة شخصية ووطنية! ثم إن الأسماء -في حالة كهذه- تصبح بلا قيمة ولا معنى. ما أطمح إليه، هو إلقاء الضوء على مسيرة

امرأة استثنائية غامضة، لا أكثر... لم أدرك أنها ستكون مغامرة كبيرة، وخطيرة جدًا، لا عليّ وحدي، بل عليها كذلك؛ فالمرأة التي تتزوج ضابط أمن مخيف لهذه الدرجة، تتحول حياتها إلى سر من أسرار الدولة، وتصبح ذاكرتها ملكًا للمؤسسة الأمنية، لا يُسمح بالحديث عنها، حتى بعد موت زوجها، فما بالك إن فكرت بأن تصبح عشيقها! أو أن تنام معها!

قدمت نفسها باعتبارها امرأة حرة جريئة متمردة، لكنها مظلومة وجريحة،! تهجمت على المجتمع الذكوري: علي وعلى الكتاب العرب! ادعت أنها لا تقرأ كتبهم، لأنهم جبنا، مسكونين بالخوف، ولا يجرؤون على قول الحقيقة... (وربما تكون محقة في بعض ذلك)، لكن سرعان ما تبين أنها -هي أيضًا- أكثر عجزًا وخوفًا وقلقًا! مسكونة بالرعب، لا تجرؤ على قول الحقيقة، وتكتفي بالاختباء خلف المنامات، وبراقع النضال النسوي وتحرر المرأة، وفن الرسم والنحت، وربما «المعارضة السياسية»...

تمكنت من الإمام بحكايتها، لكن «قيلاً عن قال»، ولم يكن هذا «القيـل» يخلو من الكذب والتهويل والتزوير! قيل لي إن زوجها قتل واغتصب الكثير من النساء والرجال، وارتكب جرائم حرب بحق الأبرياء... وقد وجدتها فرصة

مناسبة جدًا للكشف عن هذا العالم الوحشي... وسيكون مدهشًا - حتمًا - إن كتبته هي بنفسها، ليس بدافع الصدقية والواقعية فحسب، بل بدافع التمكن والمعرفة، وبحثًا عن بطانة تلك الخصوصية المبهمة السريالية المريبة التي تشوب حياة هذا النوع من البشر، والتي لا نعرف عنها إلا القليل...

كثيرًا ما كنت أتساءل مثل غيري من السوريين والعرب: كيف يعيش جلال - من هذا النوع - مع زوجته وأولاده؟ ماذا تعني له كلمات الشرف والإخلاص؟ كيف يارس الحب والجنس؟ هل يعشق الجمال ويتلفظ بكلمات الإطراء والحب والغزل؟ هل يتزوج وينجب صبيانًا وبناتًا، ينادونه بابا، مثل الآخرين؟ هل هو رجل طبيعي، أم يعيش حالة فصام محكم، بين القسوة والرقّة والصرامة والرحمة والجريمة. وكيف يوفق بينها؟ هل يشعر بالندم أو الغيرة أو الحنان أو الغبن أو الحزن أو الحنين أو الإحباط؟ هل يحلم في الليل ويتألم في النهار ويشعر بالخوف من العقاب مثلنا؟ هل جرب نار الفراق والغربة والانتظار، وهل يعرف معنى الشوق والحنان والرحمة والصدقة والقيم الإنسانية...؟ مئات الأسئلة راحت تدور في رأسي، وكنت بحاجة لكشف بعضها والبوح به، أو ملامسة حاشيتها على الأقل.

حاولت جاهداً دفع تلك الرسامة «طهران» في هذا الاتجاه، لكن محاولاتي كلها باءت بالفشل! كانت تهرب من هذا عمداً، ولا تفكر به! وبدا واضحاً لي أنها «مختونة» غير قادرة على الوصول إلى الذروة. كانت تكتفي بحكايتها المشتهاة، شديدة الذاتية، التي تشوش على الحكاية الأصلية! ربما كانت تحلم أن تكون فنانة وعاشقة وربما ثائرة! وكثيراً ما كنت أهدد بالانسحاب من المشروع، ووقف العمل فيه، واعتبار هذا الجهد نوعاً من التمرين على الكتابة، فتسارع إلى إرسال مقطع جديد... ولست أدري لم أفكر -من جهتي- في استمالتها كأثني بشكل واضح وبلا مواربة! كانت تستهويني، وقد فكرت بها، لكنها صدتني من دون أن تقول لا، وكبحت رغبتني بطريقة ما!

حاولت مراراً استدراجها إلى بيتي، لكنها بقيت تكتفي بالمراسلة وتماطل... كانت مستعدة دائماً للحديث عن غيري، فاستعارت جفاناً، ليكون عقبة بيننا! قال جفان: «الرسم طقس سري، لا يحق لأحد أن يراه». وقال جفان «الألوان قشرة رقيقة، أو غشاء مكرر، حالما يراه الضوء يتمزق ويحترق». وقال جفان: «كنت أظن أنني أرسم صورة للأنوثة... محض صورة لامرأة سكنت في مجتمعي، لكنني كنت أخشى أن أعرضها للضوء». وقال جفان «مذهب التصوير الفوتوغرافي غير قادر على تجاوز الجلد وسير أغوار

الكائنات والغوص في أعماقها»... و«الجسد عندما تمتطيه العاطفة، يتحول إلى زجاج مخاتل، لا بد لك من تحطيمه، كي ترى الروح البشرية على حقيقتها»... وقال جفان «اللوحة لحظة من لحظات القبض على الروح والحقيقة»... هذا ما قاله هو، عن لسانها، وربما كان يعرف ماذا يقول؛ أما أنا -كاتب هذه السطور- فقد اختلط الأمر علي؛ وما عدت أدري إن كانت هي من تقول ذلك كله، أم جفان! ورحت أراقب الموقف وأنتظر الفرصة المناسبة كي نلتقي فيزيولوجيًا...

كانت مغرمة بالحديث عنه، وقد أرسلت إلي صفحات طويلة، سردت فيها كيف ألقوا القبض على جفان وشحطوه إلى أحد الزنازين السفلية، وكيف بات -بعدها- لا يطيق رؤية فرج، وبخاصة بعد أن كشف له فرج الحزين أنه ذلك الـ «عرسا» الذي كان يصرخ داخل فرع التحقيق، بات يخاف منه ويخاف من صوته الذي تحول إلى طنين مضر داخل جمجمته؛ ما أصابه -أخيرًا- بمرض غامض؛ بدأ بامتناعه عن الأكل والكلام والخروج إلى ساحة التنفس، وتطور ليصبح مرضًا خطرًا أصاب روحه؛ فراح يشوه وجهه، يلطخه بالهباب والقذارة، يحلق أحد حاجبيه أو كليهما، أو جزءًا من لحيته أو جهة من شاربيه، تاركًا الأخرى... ثم صار يخلع ثيابه كلها، ويحاول حرقها أو تمزيقها، ليبقى عاريًا تمامًا...

تحول إلى كائن عنيف مرعب، يهدد حياة الآخرين بالخطر، ينهض فجأة، بعد منتصف الليل، ليأخذ شحاطة ويطرق بها الباب بقوة، وهو يكيل أقذع الشتائم للحراس ورأس النظام ومدير السجن، ورفاقه المقربين، وأولهم فرج... حتى أنه تجاسر على شتم الله وأنبيائه ومعاوية بن أبي سفيان والحجاج بن يوسف وصدام حسين وكارل ماركس ولينين... وقد وقف رفاقه عاجزين عن مساعدته أو إسكاته. وكثيراً ما كان الحراس يسحلونه ويضربونه ويعذبونه بقسوة، حتى يفقد الوعي؛ إذا ما ذكر سيادة الرئيس بسوء...

عندما تأكدوا أنه مريض حقاً، أمر مدير السجن بعزله في زنزانة مستقلة، ومنع التواصل معه، بأي شكل كان... لكن صوته كان يصل عبر الممرات، عندما يوجه خطبة عصماء للجماهير، أو يصدح بـ «العتابا» و«الميجنا»⁽¹⁾ أو عندما يصدح بهتافات وشعارات مستهلكة، أو يبدأ بمدح تروتسكي وغرامشي ولوركا... ثم يعود -بعدها- لتوجيه شتائمهم الغريبة للإمبريالية والصهيونية والأمة العربية وحزب البعث...

أكثر من حزن عليه كان فرج الحزين... شعر

1 - أغنيات محلية من التراث الشعبي.

-ولأول مرة- أنه صار يتيماً! حاول كثيراً أن يزوره أو يراه في زنزانته، لكنهم منعوه. ولم يفقد الأمل أبداً، بأن جفان سيشفى حتماً، ويعود إلى وضعه الطبيعي...

× × ×

عندما قرروا الإفراج عن فرج، وضعوه في حافلة مع «أطفال تدمر»، تم نقلهم إلى ساحة، عرف - لاحقاً - أن اسمها «المرجة»⁽¹⁾...

لم يكن له أب ولا أم ولا أقرباء ولا أصدقاء! لا مكان يلجأ إليه أو يعرفه... اقترح عليه «محمد» أحد رفاقه المقربين، أن يصحبه إلى بيته، لكنه - هو الآخر - وعلى الرغم من أنه أكبر منه، لم يكن يعرف كيف يصل إلى ذلك البيت... لا يعرف غير دكان لأحد أقاربه بحي الصاحية، لكنه لا يعرف كيف يصل إليه! فعندما نزل في ساحة المرجة وسألاً عن حي الصاحية، دلوها كيف يستقلان باص الصاحية كي يصلا إليه، لكن تبين أن الأمر شائك جداً بالنسبة إليهما، فهما لا يعرفان شيئاً، والأمكنة تغيرت أصلاً، وكلاهما لا يملكان الخبرة بخطوط النقل الداخلي المعقدة، ولا يملكان المال اللازم لذلك!

1 - ساحة شهيرة في دمشق شق فيها الوالي جمال باشا السفاح، عددًا من الأحرار العرب، المناهضين للدولة العثمانية.

لم يبق أمامهما إلا اللجوء إلى أقرب جامع في تلك
الساحة...

الأهل -أيضاً- لم يتمكنوا من معرفة ابنهم محمد
بسهولة...! كان في الصف السابع عندما أخذوه. أصبح -
الآن- في الخامسة والعشرين من شبابه! أخواته الثلاثة وُلدن
في غيابه ولا يعرفنه إلا من خلال صورة صغيرة عمرها من
عمر الصف الأول الابتدائي؛ كبرها والده وعلقها في صدر
البيت! كانت الصورة هي محمد.

عندما أوصلوه -أخيراً- إلى بيته؛ استوعب أبوه قصة
فرج، وتعاطف معه، واحتضنه، لكن بيته كان ضيقاً، ولديه
ثلاث بنات، إحداهن في سن النضج... زوّده بمبلغ متواضع
جداً، وأمن له مكاناً في جامع الحنابلة القريب، كي يعيش
فيه .

كل شيء كان جديداً على فرج... فهو لم يرَ في
حياته صبية أو زهرة أو شعراً طويلاً أو ستارة أو سريرًا،
على الرغم من ثقافته النظرية التي استقاها من الكتب! إنه
يعرف البرد، لكنه لا يعرف الغيوم والثلج والمدفأة، لم يجرب
الأحذية ولا المشي تحت المطر! يعرف ليل النوافذ، لكنه لم
ير القمر أو النجوم في حياته! يعرف ضوء النهار، لكنه لم
ير الشمس أو ظلال الأشجار أو لون الغروب... فاجأته الريح،

فما عرف كيف يتعامل معها! فاجأته البنيات والشوارع
 والباعة والسيارات، كما فاجأه الفراش واللحاف الأبيض
 والمخدة الوردية والأفق والجبل والعشب والأرصقة والتراب
 والزجاج والصخور والموسيقى وواجهات المحال وأصص
 الورد ورائحة العطر... شاب في الثامنة عشر من عمره، بلا
 عمر ولا ذاكرة ولا تجربة... ما قرأه في الكتب وما سمعه من
 قصص وأحاديث، كان محض خيال وتصور غامض للأشياء!
 لم يتوقع أبدًا أن تكون الحياة حقيقية إلى هذه الدرجة؛ تراها
 بعينيك وتلمسها بأصابعك وتسمعها بأذنك وتشمها بأنفك
 وتذوقها بلسانك... لكن حاسته السادسة كانت متحفزة
 بأسفة، وكان يجب عليه أن يبدأ من الصفر، أن يتعلم
 الأسماء، ويتعلم المشي، وارتداء الملابس، والخروج من الباب،
 والنظر من النافذة، والتعرف إلى الأزقة والدكاكين والأماكن
 والجهات والناس والكلام ورد التحية والمجاملة... كان ذلك
 كله مستجدًا ومدهشًا... لم يلجأ إلى الصمت والانزواء، ولم
 يخف من الحياة الجديدة، كما يحدث -عادة- في مثل هذه
 الحالات، بل أقبل بنهم عليها، وراح يشربها بعينه ويصغي إلى
 إيقاعاتها بشغاف قلبه، ويلامسها بأصابع يديه وأهدابه.
 سيصبر ويكابر ويتعلم الأشياء كلها... إنها حياته...

الجامع كان كابوسًا جديدًا لم يألفه من قبل، مع أنه
 عاش وتربى مع رجال دين متشددين! فُرض عليه لباس

خاص لم يعجبه، ورفض أن يلبسه، وفرضت عليه الصلاة، خمس مرات في اليوم، مع أنه ترك الصلاة قبل خروجه من السجن بسنوات... منعوه - طبعًا - من الرسم والنحت والترجمة، وأرادوا تحويله إلى تابع أو خادم مطيع لهذا الشيخ أو ذاك الخطيب، مع أنه من الفتیان القلائل الذين تبحروا في الدين وعرفوا أصوله، وحفظوا القرآن والسنة النبوية، قبل خروجهم من السجن...

الطريف في الأمر، أنهم حاولوا إجباره على إكمال دينه بالزواج من إحدى تلك الفتيات اليوغسلافيات المسلمات اليتيمات اللواتي هربن من جحيم الحرب الأهلية في «كوسوفو»، ولجأن - في التسعينيات - إلى عدد من جوامع دمشق؛ وعُرضن للزواج من أي رجل مسلم، يستر عليهن أو يرغب في الزواج على سنة الله ورسوله! رفض العرض واستاء وامتنع، مع علمه أنه مثلهن بلا أب وأم؛ ما دفعهم - في النهاية - إلى طرده من الجامع، بتهمة العلمانية والإحاد والطعن في النسب! لكنه لم ينقطع، خلال السنة التي قضاها في الجامع، عن القراءة والترجمة والرسم والنحت، وهذا - ربما - أكثر ما أثار حفيظة القيمين على الجامع، وجعلهم يرتابون بدينه وصحة إيمانه.

كانت الأبواب كلها مغلقة في وجهه، لأنه لقيط، لم

يكن يتيماً، بل مجهول النسب! محروماً من حقوقه كلها! ثم استعباده لهذا السبب... لم يتمكن من الحصول على أي عمل، ولم يعترف به أحد أو يقبل بتشغيله... هذه المسألة نغصت عليه حياته وسدت عليه السبل، لذلك، وضع لنفسه هدفاً واحداً، هو أن يعترف به المجتمع! ولم يكن هذا ممكناً إلا بإقامة دعوة قضائية، يصنفها القانون بـ «دعوة الحسبة»، يقيمها اللقيط، ضد أمين السجل المدني في مكان الإقامة، كي يتمكن من الحصول على نسب وهوية! هذا ما نصحه به المحامون، واستطاع بمساعدتهم ومساندة إمام الجامع -حينها- من كسب الدعوة؛ ما سمح له -أخيراً- أن يكون له أب اسمه: عبد الله (وهو الاسم الذي يختاره القاضي عادة، للقطاء) وأم اسمها ياسمين (وهو ما اختاره فرج بنفسه)، وخانة هي مكان إقامته في جامع الحنابلة بحي الصالحية! أما ديانته، فهي الإسلام طبعاً، دون غيره...

تم تسجيله في دائرة النفوس، وتم الاعتراف به وتسليمه هوية شخصية برقم وطني، تثبت أنه مواطن عربي سوري، اسمه: فرج، وكنيته: عبد الله، نسبة إلى أبيه الافتراضي! ولم يتم ذلك في ليلة وضحاها، بل استمر أكثر من ثلاث سنوات، عاشها في الجامع صابراً مثابراً على عمله... كان ذكياً دمثاً خبيراً بالناس مقبلاً على الحياة، على

الرغم من صعوبتها. وقد تعرف إلى أصدقاء كثر تعاطفوا معه؛ فقد ساعده أبو محمد (صديقه) في الحصول على مكان آخر يقيم فيه، داخل مشغل صغير للنحت اليدوي، بمدينة داريا، يملكه تاجر «أنتيكا» أعجب بمنحوتاته التي صنعها في السجن، فسمح له بالعيش في مشغله، مقابل إصلاح وترميم وتنظيف ما جمعه من قطع عتيقة، ليقوم ببيعها، من جديد، وبأسعار مضاعفة، للحوانيت والبسطات المنتشرة حول الجامع الأموي، في دمشق القديمة.

انتقل إلى مشغل صغير في قبو ضيق، أسفل بناية شاهقة مكسوة بالرخام الأبيض، له باب حديد متذل مثقوب، ونافذة ضيقة... يزدحم بالصناديق والتحف الفنية المتنوعة، والمنحوتات النحاسية والفضية والخشبية المحشورة في خزانة اسمنتية تشبه «المطوى»، تغطيها ستارة سميكه، علقت بالمسامير في صدر ذلك القبو الذي كان يخلو تمامًا من الفئران، بفضل كتيبة من القلط، تعيش في الفناء، وتستطيع أن تدخل وتخرج منه متى شاءت، عبر كوة صغيرة في النافذة.

تمكن فرج - بعد جهد - من إيجاد عمل إضافي في مكتب يقوم بترجمة شتى أنواع السندات والوثائق والشهادات والمراسلات؛ فراح يترجم في الليل ويرم في النهار... وهكذا،

شعر بالاستقرار، وربما السعادة العظيمة التي لم يعرفها من قبل. وهذا ما ساعده على الانخراط في هذه الحياة البكر التي كانت تذهله كل يوم بتنوعها وثرائها وتناقضاتها، على الرغم من قسوتها، وكيف لا تكون الحياة قاسية، بعيني شاب لم يختبرها بعد!

لكنه، في خضم حياته الجديدة، لم ينسَ يوماً صديقه جفان الذي علمه الرسم والنحت واللغة الفرنسية. كان يتذكره مع كل قطعة يرميها وكل ورقة يترجمها، ولم يكن لديه شك أنه خرج من المعتقل، وتعافى، وأنه يعيش الآن في مكان ما بالغوطة، عند أهله ربما... فطالما حدثه جفان عن أهله وعن الغوطة وأشجارها وبساتينها... عن المشمش والخوخ والدراق والجوز والماء... عن أمه الأرملة التي ربه وعلمته، من «شغلها بالإبرة والتطريز»، وأخته الصغيرة سحر، وأبيه الذي فُقد في حرب تشرين/ أكتوبر عام 1973، على مشارف جبل الشيخ، ودفن هناك تحت ثلوجه، ولم يتمكنوا -حتى الآن- من معرفة مصيره أو الحصول على عظامه! لم يحصلوا إلا على تابوت مليء بالحجارة ربما، أما جثته، فقد بقيت راقدة هناك، غير بعيد عن المرصد المطل على دمشق... لم يكن جفان لقيطاً مثل فرج، بل يتيماً، له أب شهيد وأم وأخت وتابوت ومرصد وعظام...

زار كثيراً من قرى الغوطة، وسأل كثيراً عنه... ما هي أخباره؟ أما زال مريضاً؟ هل خرج من السجن؟ وماذا حل به؟ يقال إن السيد الرئيس أصدر عفواً عاماً، وأُغلق سجن تدمر الرهيب... لا شك أنه أصبح حراً طليقاً قبلي... كم أشتاق إليه وأرغب في رؤيته...! لو أعطاني عنوانه، لكنت ذهب إليه، بعد خروجي من السجن مع محمد، وما كنت احتجت لذلك الجامع البغيض... ومن يدري قد يكون جاري، يسكن قربي في داريا، في هذا الحي، وفي قبو من مثل هذا القبو... ومن يدري قد أراه صدفة في الطريق أو الدكان المجاور...

وبالفعل، شاءت الصدفة أن يلتقي به فجأة في مكان بعيد عن قبوه... فقد ترجم تقريراً طبياً، كلفه مدير المكتب بإيصاله إلى عيادة دكتور مختص بالطب النفسي، اسمه عاصم عاصم... وهناك التقى ثانية به...

أصيب الطبيب النفسي بصدمة عندما قفز جفان من مقعده كالمصعوق وتعلق برقبة فرج، ما إن رآه... أخذاً يضحكان ويبكيان معاً... يبتعدان، فينظر كل منهما إلى الآخر، ثم يتعانقان من جديد... كان لقاء فريداً، لا تسمع فيه سوى همهمة سعادة وكلمتين هما «جفان» و«فرج»... فرج وجفان!

بقي عاصم صامتًا متفرجًا؛ إلى أن هتف جفان، مشيرًا بيديه الاثنتين إلى فرج: هذا هو يا دكتور عاصم... هذا فرج الذي حدثتكَ عنه... ثم ينظر إليه ثانية، متفقدًا وجهه وطوله ويديه وشاربيه...

كان جفان قد خرج من المعتقل في ذلك اليوم الذي أفرج فيه عن فرج، وعن كل من أصابه عطب بسبب الاعتقال؛ وذلك بعفو خاص من رئيس الجمهورية! اقتادوه مكبلًا من سجن سيدنايا إلى فرع التحقيق العتيد، وبسبب وضعه الخاص، طلبوا من أمه أن تحضر لاستلامه، فحضرت برفقة أخته سحر (التي أضحت طبيبة أطفال)، وخطيبها الدكتور عاصم الطبيب النفسي... كان في حالة مزرية، نفسيًا وبدنيًا، اكتئاب حاد وعقدة اضطهاد، وجلد على عظم...! رأى أخته وأنكرها، وسيطر عليه هدوء غريب عندما عانقته أمه، لكنه ابتعد عنها فجأة كالملسوع، عندما بكت، فلم يستجب لعناقها وقبلاتها! حاول عاصم أن يحدثه فلم يرد! وعندما خرج إلى الشارع، أغمض عينيه وصمت... بقي مغمض العينين وهو يمشي، حتى وصل إلى البيت... هناك، جلس في زاوية غرفته، ونصب بطانية عسكرية كتيمة، لتكون ستارًا يحمي به ويحميه من نظرات الآخرين! وبدأ عاصم بعلاجه، وتمكن - بسرعة - من كسب صداقته، كما تمكن - بواسطة الأدوية - من التخفيف عنه، وإلغاء الستارة

على الأقل، لكنه بقي صامتًا مشدوّهًا، عازفًا عن الطعام والبهجة... الوحيد الذي جعله يتكلم، وأقنعه بالخروج من الزاوية، هو فرج الحزين الذي صار يزوره كل يوم تقريبًا، ويحدثه عن محمد والجامع وعمله في مكتب الترجمة والمرسم العجيب الذي يعيش فيه، والتحف الفنية الرائعة التي يعيد ترميمها، ويصغي إليه فرج باهتمام، بينما تصنع أم جفان الشاي، وتقدمه لهما، وهي تشعر بسعادة غامرة، لأن ابنها بدأ يصغي ويضحك ويتفاعل! وإن تأخر فرج عن زيارته ساعة واحدة، راح جفان يسأل عنه بلوعة: أين فرج؟! هل غضب مني؟! لماذا تأخر فرج؟! ثم يغمض عينيه ويصمت من جديد؛ فتذهب الأم -مسرعة- إلى المشغل، لتخير فرجًا بأن جفان يسأل عنه...

ويومًا بعد يوم، تمكن فرج، من إقناع جفان بالعيش معه في مشغل الأنثيكا بداريا، ومساعدته في عمله. وقد شجعه على ذلك، الدكتور عاصم...

هناك، وبعد بضع أسابيع من انتقاله إلى ذلك القبو الساحر، عاد جفان إلى الرسم والنحت، من جديد، بشغف يشبه السعادة!.

- 6 -

كان البرد شديداً، وبدأ الثلج بالهطول... وكنت أشرب النبيذ بمتعة نادرة، وأنا أفكر فيها وأقرأ لها هذا المقطع العجيب...

تم الاتفاق بيننا أن تكون فصول الرواية مناصفة، واحد لها وآخر لي (نتناوب على كتابتها تباعاً)، وأن يبني كل منا فصله الخاص به، على ما كتبه الآخر؛ آخذين بعين الاعتبار وحدة الأسلوب وتقنيات الكتابة واللغة ومجريات الحدث وتطور الشخصيات والهدف... لكنها، لم تستفرد بالفصول كلها وحسب، بل هي تجريني -الآن- حيثما تريد، محولة الـ «كاتب» الذي استعانت به، وقررت -طوعاً- أن يكون هو صاحب القرار النهائي، يفعل بروايتها ما يشاء؛

إلى قارئ عادي منفعل، أو محرر لنصر سردي، التبس عليه الأمر في ما كُتب! وكلما استعدّ لكتابة مقطع جديد، أرسلت إليه فصلاً جديداً، يحتوي على عوالم وأحداث وشخصيات متفوقة! إنها تتمرد عليّ وتحاصرني؛ حتى بتُّ أشعر بالخطر، وأصبح الأمر مربكاً بالنسبة إليّ! فهي تستفرد بالأحداث وتأخذ الرواية باتجاه مختلف عما أردتُ، ومخالف للشروط التي اتفقنا عليها! والأخطر من هذا كله، أنها لم تقل بعد، كلمة واحدة عن حياتها الخاصة مع الجنرال، وهذا ما جعلني بدءاً أقبل الشراكة معها في كتابة هذا المشروع...!

ملأت كأساً أخرى من النبيذ الأحمر، واحترت كيف أتصرف! قلت: لتكتب ما تشاء، وسأنشر -بدوري- ما أراه مناسباً. قد يكون سلوكاً غير نزيه، لكنها لم تترك لي خياراً آخر! سأضطر إلى نشر الرواية دون ذكر اسمها! اسمها -أصلاً- غير حقيقي، لكن عليّ أن أتأكد من ذلك أولاً... ثم إنها كتبت مادة معقولة، ولا أريد أن أخسرها وأضيع هذا الفرصة التي لا تتكرر... لكنني لم أعد أستطيع الاستمرار أيضاً، فماذا أفعل؟

دعوتها لزيارتي على فنجان قهوة؛ فرفضت واستنكرت! اقترحت عليها أن نلتقي في مكان ما، فاعتذرت بلطف كالعادة! وعندما طلبتُ رقم هاتفها على الأقل، قالت

إنها لا تستخدم الهواتف! وبدأت أشك في نواياها، وأتساءل: ماذا تريد؟! إنها تضرب على الوتر الحساس (الاعتقال السياسي) وهذا ما كتبتُ عنه كثيراً؛ فلماذا ترفض لقائي! وكيف تستخدم الإنترنت ولا تستخدم الهاتف! كنت أقدر غموضها وحذرهما، ومن يدري! قد يكون هاتفها مراقباً... لكنني لا أستطيع أن أكون شريكاً في كتابة رواية حقيقية، مع شخص وهمي خائف، تهدمت معه جسور الثقة والشجاعة! وبّت أخشاها بدوري، وأتحاشى التواصل معها، لكنها اقترحت - فجأة - أن أزورها أنا...! حاولت التهرب من الإجابة، ريثما أفهم السبب، قلت: سأفكر في الأمر، ثم قلت سأحاول، لكنها أصرت، وكتبت بشكل قطعي: «بل ستأتي غداً في الساعة الثانية بعد الظهر»... وأعطتني العنوان: (قبو بمدينة داريا. أسفل كومة من قشر اللوز والنفايات!).

ارتعشت أذناي، وارتجف قلبي من الخوف! داريا!! هل تسخر مني؟! إنها تعيش في حي القصاع⁽¹⁾ (كما علمت)! في بناية تحرسها الدبابات... من يستطيع الذهاب إلى داريا المدمرة المحاصرة؟! هل يعقل أن تعيش امرأة كهذه في قبو بداريا الخاوية! هل عاد سكانها دون علمي، أم أنهم لم يغادروها أصلاً...!

1 - حي راق من أحياء مدينة دمشق

قرأت العنوان مرة ثانية وثالثة ورابعة... وقررت - أخيراً- عدم الرد ووقف هذه المهزلة نهائياً: (يبدو أنه عشّ عقارب بالفعل، كما قال صديقي)... لكنني فوجئت للتو، بطرق خفيف على باب بيتي، بيتي أنا! لا أدري كم كان الوقت، ربما أول الليل، ربما آخر الفجر! لكنني كنت واثقاً، بأن أصابعها النحيلة هي التي تطرق الباب؛ فقد كنت بانتظارها! وقبل أن أفتح الباب دخلت...!

«مرحبا»... «هل جئت في الوقت المناسب؟»

كانت ترتدي معطفاً عسلياً فاخراً وقبعة صوف وقفازات سوداء، لكنها تلبس كندرتها الصفراء المدببة! خلعت المعطف، فظهر فستانها الأبيض الموردا! يا إلهي... إنه ذلك الفستان الذي اخترعته، وتلك الكندرة نفسها، ذات الكعب العالي! لكن الفستان كان رقيقاً مثل «شلحة»، لا تتناسب أبداً مع هذا البرد الشديد! إنه قصير أكثر مما توقعت، وله زنار وردي رفيع! شعرها قصير أيضاً، وصدرها ضامر... وما أدري لماذا هيء لي أنها طويلة جداً! انحنت لتسحب من حقيبتها زجاجة نبيذ وتضعها على الطاولة! لم أر الزجاجة، بل رأس نهد صغير خرج عن التغطية، بينما احتجب الآخر داخل قوقعته... زجاجة نبيذ أخرى؟ تساءلتُ، قالت: وفستان آخر أيضاً! «أنظر»، ثم استدارت

بحركة بطيئة، كما لو أنها توجت في مرآة، أو تحركت بفعل نسمة ريح في مشهد سينمائي بطيء... رأيت ما فعله قضيب الحديد في مؤخرة الفستان، تمامًا كما وصفته أنا في المقطع الأول، وأنكرته هي في المقطع الثاني! «هل ترى؟»... قالت، كما لو أنها تدعوني لأمد يدي وألمس لحمها، لكنني لم أفعل...

- كنتُ أفكر بك، لكن كيف وصلت بهذه السرعة! ما إن فكرتُ حتى أتيت! هل أنتِ سكرى، أم مسرنة؟ تعيشين حلمًا من أحلامك، أم هي شهوة من شهواتك الغابرة؟!؟

تناولت يدها - بلطف - وكدت أقضم أصابعها الشهية الخالية من الخواتم، لكنني لثمت باطن كفها، عوضًا عن ذلك، وأعدت إليها أصابعها سليمة! كان الكف دافئًا نديًا تفوح منه رائحة ثلج وبرد، أما جسدها فكان - وما زال - هزيلًا نحيلًا، كما لو أنه خيال امرأة، وكنت في حالة من الغلظة والتخدر اللذيذ، لدرجة أنني لم أستطع تقبيلها...

لا أنكر أنني اشتيتها مذكرايتها؛ بل تمنيت - عندما قرأت رسالتها الأولى - لو كنت أعرفها من قبل... وبدأت أشعر - بعدها - بإثارة ما، كلما قرأت رسائلها وتذكرت عينيها وفمها العذب! لماذا لم أقبلها؟! كان فمها قرب فمي، لكنني لم أفعل... وكلما تأكدت بأننا سنكتب - معًا - رواية واحدة؛ انتابتني رعشة شهية مبهمة!

قالت إنها لم تأت من أجل الرواية! بل جاءت مضطرة، كي تشرح لي التباساً وقع فيه الكثيرون، وتحول إلى قناعة ساذجة أنها زوجة ضابط كبير! وقالت إنها لا تفهم من زرع هذه الفكرة في رأسي! وأقرت أنها لم تتزوج قط، كما أظن!

«أنا... عانس!» أكدت حانقة، «لم أتزوج في حياتي، ولم أعشق رجلاً غير جفان، ولا أرغب في خوض هذه التجربة مع أحد غيره!» مالت علي وقالت بأنني أشبهه (هكذا قالت، كما قالت)، ثم أكدت بأن الكثيرين يظنون أنها متزوجة، وهو محض تشابه في الأسماء لا أكثر! «إنهم يخلطون بيننا؛ أنا وامرأة أخرى، كانت زوجة ذلك الجنرال المجرم، كما تسميه وتصفه» .

لا أذكر أي سميتة أو وصفته هكذا، لم أذكره أو أسأل عنه مرة، ولم أفصح عن اهتمامي بحياتها الزوجية تحديداً، كي لا تخاف وتهرب مني! فكيف عرفت؟! كل ما طلبته منها ودفعتها إليه، هو الحديث عن عشرين عاماً من سيرتها، أخفتها عني لسبب ما! كانت هذه الفكرة موجودة في رأسي أنا، سر من أسراري الخاصة بي، لا يعرفه أحد سواي! فكيف عرفته هي؟ هل يعقل أن يكون صديقي الذي حذرني منها، قد وشى بي؟ وهل جاءت من «قبوها في داريا» وفي هذا البرد الشديد، كي تقول لي مثل هذا الكلام، ولماذا ترتدي

إذن هذا الفستان؟؟؟

لم أصدقها طبعًا. أدهشني أنها تتقن الكذب في الكتابة أكثر من الكلام! تنثال بالعبارات كالحجلة عندما تبدأ بالشقركة، وما إن تشعر بخطر طفيف حتى تمسك بكتلة تراب أو حجر وتختبئ تحته. وما أدهشني أكثر، أنها لم تنظر -أبدًا- في عيني مباشرة! عيناها محيدتان، تخلوان -تمامًا- من التعبير والسّمات: زجاج مطفأ، لا بريق، لا عمق، لا إشارات واضحة! لم تكن كذلك عندما رأيتها أول مرة! إنها تتحدث الآن كالنائمة أو «المسرّمة»، كما تحب أن تصف نفسها، تعضّ أطراف حرف الرء، مثل الفتيات الصغيرات، على الرغم من أنها تجاوزت الأربعين بخمس سنوات. من قال لها إني مهتم بذلك «الجنرال المجرم»؟! هكذا سأسميه وأصفه في الرواية، لكن من قال لها إن هذا ما سأفعله؟ هل توقعت ذلك؟ ومن أين اخترعت هذا الـ (تشابه في الأسماء)!!؟

شربت كأسًا رابعة مشابهة للأولى، ثم أغمضت عيني وتوقفت عن الأسئلة كلها... لكنني سمعت صوتها - فجأة- يأتي من المطبخ! كانت تحضر القهوة أمام الغاز، وتدير ظهرها لي! شعرت للوهلة الأولى أنها زوجتي، كانت ترتدي ثيابها! راقبت متنها الطويل الحافي وشعرها القصير، توقفت عند شق فستانها الأبيض الذي كشف عن باطن فخذين

رفيعتين. كانت تشعر بي، وتراني بردفيها. اقتربت منها ببطء والتصقت بها، فتوقفت عن الحركة. توقعت أن تسكب غلاية القهوة على رأسي، لكنها لم تقم بأي ردة فعل نسائية. كانت نحيلة لدرجة أنني لم أجد على احتوائها بقوة مناسبة! امرأة بلا لحم تقريباً، لكن عظامها شهية... فتحت سحاب فستانها بهدوء، ورحت أقبل عنقها وكتفيها بلطف، أعد فقرات ظهرها البارزة، بشفتي، من الأعلى إلى الأسفل! تركتني أفعل ذلك بحرية، وراحت تحرك القهوة بانفعال مدروس، وعندما وصلت إلى الردفين، وركعت على البلاط؛ حاولت إبعادي بعجيزتها: «القهوة»... مدت يدي وأطفت الغاز، وعندما حاولت فك شريط حمالة الصدر، منعني بقوة، وحثت ثدييها بساعديها الاثنتين...

أول ما فعلته في غرفة النوم، هو أنها أطفأت الضوء! قالت صراحة إنها مستعدة، ولكن شريطة أن تربط يدي أولاً، وتغطي عيني! تركتها تفعل بي ما تشاء، على الرغم من استغرابي لهذا الطلب! دفعتني إلى السرير، فاستلقيت مستسلمًا... ورأيته كيف حلت زنار فستانها الأبيض، وربطت يدي بإحكام إلى السرير! ثم غطت رأسي بسترتي السوداء، فلم أعد أرى شيئاً. طلبت مني أن أبقى هادئاً، وأنا في ذروة الانفعال!

لكن السرير تحول -فجأة- إلى سرير عسكري،
والكندرة الصفراء إلى «بوط» أسود! وقفت فوقى وأخذت
تقفز على صدري وبطني وركبتي، تركل خاصرتي
بحذائها العسكري الضخم وتلّوح بالسوط، كما لو أنها
تفكر بشخص آخر، وتجلدي أنا...

كان ذلك مؤلماً جداً؛ لكنه مثيراً إلى حد بعيد...
فاجأتني لهفتها وصبوتها ومهارتها. خلعت ثيابي بحرفية
عالية، ولم تخلع ثوبها، قبلت مسامات جلدي، ولم تسمح لي
بتقبيلها، رفعت فستانها فوق ردفها، وجلست علي ببطء،
وراحت تهمزني بركبتيها، وتلكمني بقبضتيها الاثنين على
صدري، وهي ترهز وترتهز وتنوس وترتعش وتبكي، كما
لو أنها في مناحة، حتى وصلت إلى قمة النسيج...

لم أستطع لمسها، أو النظر إليها... ظلت تبكي وحدها
حتى سال الدمع على وجهي، ثم همدت، وهدت...

كانت متعة استثنائية مختلطة، قصيرة كاللحظة،
لكنها أزلية، مغايرة لكل تجاربي مع النساء، ولم تكن تجارب
قليلة، لكنني -هذه المرة- شعرت بشيء غريب عني، لم
أختبره من قبل! «لذة مزوجة بالألم»... لم يكن شوقاً ولا
شبقاً، بل حواراً بين روحين، ضحيتين، أو مونولوجاً مزدوجاً

لجسدين! هذا فن أصيل، لا يتقنه إلا المهووسين المدنفين! من أين جاءت فكرة القيد وإغماض العينين... والسوط! هل كان حقيقياً؟! ومن منا جلد الآخر؟ هل تشاهد أفلاماً إباحية، أم هي لوحة «اير وتيكية» من لوحاتها التي لم ترسمها بعد؟! حلم أم مرام، أم غلطة شخصية محضة، اكتسبتها من ذلك الجنرال؟؟

اكتشفت الأمر بعد نشوتها... استرخت على صدري، وطوقتني بذراعيها... فاحت منها رائحة الدموع وأحاسيس الأنثى المطعونة في صدرها، تمكنت في ذروة الهدوء والحد، أن أشعر بطعنة نهد واحد من نهديها. كان الأيمن صلباً أكثر مما يجب؛ يضغط على صدري مثل كتلة من الخرق أو السيليكون! إنها امرأة بحبة زبيب وليمونة واحدة...! ومع أنني حاولت ألا ألفت انتباهها أو أسأل عن التفاصيل، غير أنها أحست بأنني فهمت، فاستوت على ركبتيها المنفرجتين حول خصري، وحمت صدرها بذراعيها! لم أكن أراها، لم أستطع لمسها، لكن صوتها بات عدوانياً اتجاهي فجأة! قالت إنني داعر «نسونجي»، ثم نهضت منفعة وأشعلت سيجارة وراحت تتهمني برغبتي وغلمتي! بأنني أحب الشبقات العاهرات، وبخاصة اللواتي يستهوين هرس حبات الزبيب، وعصر النهود وصفع أرداف العجين المكتنزة

في اللحظات المناسبة، علمًا أنها حرمتني تذوق الحبّتين ولمس
النهدين والردفين! وبدأت تحقق معي! تسأل عنهن، وتطلب
إلي الاعتراف بأسمائهن، ووصف مفاتهن! وما أذهلني أنها
كانت تعرفهن جميعاً! كلهن ناعمات ممتلئات بشعور طويلة
وحدود مرتفعة وشفاه وردية وأثداء بارزة ومؤخرات كبيرة،
رخوة كالإسفنج... وقالت: «أنا لست كذلك، ولا أريد أن
أكون».! معها حق طبعاً، إنها مختلفة! وهي صادقة جداً بما
قالتة عني أيضاً، نعم، أحبن، وهل هذه تهمة! إنها الحقيقة
الوحيدة التي اكتشفتها، لكنها كشفت عن رغبات دفيئة
تحت جلدي، وكنت أرغب لو تحدثني أكثر وأكثر عني؛ لكنها
راحت تتحدث بإسهاب عن جفانها... كيف عرفته وعشقته،
وكيف كانت تمارس الحب معه، في ذلك القبو الخرب. ولست
أدري لماذا اختارت هذا الوقت لنشر أهوائها أمامي، ووصف
أدق التفاصيل الجنسية، حتى تلك التي نخجل - عادة - أن
نبوح بها! كانت تستمتع وهي تتحدث بشغف عن جسده
وعضلاته، ومناطق الإثارة لديه، رائحة جلده، شعر صدره،
شاربيه، إبطيه، عانتة، فحولته... وكانت دهشتي كبيرة
عندما اكتشفت بأن هذه الأوصاف مطابقة لي! هل هو شكل
من أشكال الغزل أم المناكدة، أم التعذيب؟ هل كانت تحاول
إثارة شبعي، أم غيرتي؟ لا أنكر أنها نجحت في ذلك كله،
لكن هل كان ذلك الـ «جفان» رجلاً حقيقياً أم طيف رجل، لا

أدري! ما أعرفه جيداً، أنها لم تلتق به أبداً؛ لأنها ذكرت - في مكان آخر - أنها عرفتة قبل آذار / مارس عام 2011، وكانت - حينها - تعيش تحت رحمة الجنرال! فهل كانت تخونه؟ وأي امرأة تستطيع أن تخون جنراً لا مجرماً!؟

ما أعرفه - أيضاً - أن جفان لم يهرب، كما ادعت، بل قيل إنه حطم كل ما يملكه من منحوتات ولوحات وأدوات، أثناء حصار داريا، ثم صعد إلى أعلى نقطة في منور تلك البناية المدمرة، وألقى بنفسه فوق ركامها... تهشمت جمجمته، وغاب عن الوعي؛ وبعد يومين من النزف الداخلي، مات. ويقال بل هو القناص من أطلق النار على قلبه فسقط، لكنها أصرت على روايتها هي... وقبل أن ترتدي معطفها، وعدتني، وهي تضع مفتاح شقتي في حقيبتها، أن ترسل مقطعاً من البوح الصافي، مكافأة لي! «سيكون مفاجأة» قالت، لكنها اشترطت ألا أقوم بنشره أبداً، ومهما كانت الأسباب... إنه بوح خاص بي... لا علاقة له بالرواية، ولا يحق لذكر آخر أن يطلع عليه... «هل تعدني بذلك؟» قلت: «أعدك»... فقالت مهددة هذه المرة: «إن لم تف بوعدك؛ سأقوم باعتقالك وتعذيبك حتى الموت...» ثم تركتني وخرجت، قبل أن ترفع الغطاء عن وجهي أو تفك قيودي...

خرجت، حتى قبل أن أفتح لها الباب...

الفصل الثاني

- 1 -

مع أنه كان معروفًا للسوريين جميعًا؛ غير أن اسمه سري للغاية، يتجنبه الجميع، ولا يمكن البوح به... أبدًا...
كان برتبة رائد! زارنا، وهو يرتدي بزته الرسمية مع والده العجوز وأخيه الملازم حيدرة! وكان من الواضح أنه صبغ شعره للتو... لا أدري لماذا أعجبت أختي ميساء به، على الرغم من أنه يناهز الأربعين من عمره! هل كان ذلك بسبب قامته الطويلة المشوكة، أم لباسه العسكري، ونسره القماشي المطرز بخيوط ذهبية صفراء فوق كتفيه العريضتين، أم بسبب ذلك النسر المعدني المثبت فوق «قبعة» الجوخ الخضراء المستديرة، ذات الطرة السوداء؟ لا أريد وصف عينيه وأنفه وحاجبيه الكثيفين وفكه العريض...

أَفْضَلُ وصف له هو أنه بلا أوصاف وعلامات فارقة! أو أنه باختصار شديد: رجل بشاريين، وآلاف العيون! طويل عريض، وحازم، لكن تبين - لاحقًا - أنه يخاف الفئران والصراصير «مثلني»...

كان متزوجًا ولديه طفلان: صالح وعليّ... لم تكن ميساء قد رأتَه يومًا، أو رآها! ولا أحد منا كان يعرف كيف حصل على صورة شخصية لها! أخوه حيدرة، هو من اختارها لتكون زوجًا لأخيه الأرملة «أبو صالح»! ظل يراقبها طوال ثلاثة أشهر، دون أن تدري! لم تصدق أمي أنه لم يرها من قبل! وعندما سألتَه على استحياء، ابتسم وهو ينظر إلى أخيه، ثم قال متهرّبًا من الإجابة: «ولو يا أم خضر! نحن أهل وأولاد بلد».

عرفت المسكينة الحقيقة بعد زواجها (كان ذلك قدرها)... وكانت مراهقة في الصف العاشر، مفتونة منذ الصغر بضباط الجيش وبطولاتهم وثيابهم المرقطة. تحب لباس الفتوة ودروس «التربية العسكرية»، وكان أغلبها «ميدانيًا». تتدرب فيها على «النظام المنضّم» والزحف والقفز والدحرجة والرمي...

شخصيًا، لم أفهم -يومًا- معنى هذه العبارة «نظام

منضم»، ولا أظن أن أحدًا من الفتيات أو الفتیان كان يفهمها، أو يفكر في الغاية منها. يتعلمون الاصطفاف والمسير والمرابحة في المكان والوقوف والالتفاف والتحية وتقديم الصف. ويعاقبون على أي خطأ، بالتوبيخ والزجر والزحف على البطون والأكواع والركب والمؤخرات، فوق الحصى والشوك والطين والإسفلت... كانت تحب هذا، لكن درس ذلك اليوم كان مختلفًا تمامًا:

طلبت مدربة الفتوة من الفتيات، الخروج إلى باحة المدرسة والجلوس على شكل صندوق مفتوح، أمام طاولة خشبية غليظة، كان يقف خلفها شاب برتبة ملازم، يرتدي «فيلدا»⁽¹⁾ عسكرياً ويضع أمامه على طاولة حديدية سوداء، بندقية حربية... قدمته المدربة باعتباره بطل الجمهورية في الرمي، وانضمت إلى الطالبات. رحب الملازم بهن، بعبارات مقتضبة، ثم رفع بندقية الكلاشينكوف بيده، وأعلن: اليوم، سنتعلم فك وتركيب البندقية الروسية...

لم يترك هذا الملازم الشاب أي انطباع لدى أختي، لكن المدربة طلبتها بعد انتهاء الدرس إلى غرفة التوجيه؛ نظرت في عينيها الجميلتين مطوّلاً، فارتبكت، وزادت حيرتها عندما ابتسمت المدربة بغموض وقالت غامزة «حلو... ليش

1 - الفيلد: سترة سميكة يرتديها الضباط والجنود

الكذب... معو حق والله!« ثم سألتها عن اسم أبيها وعنوان بيتها، وأمرتها بالانصراف دون شرح!

جاءت إلي -يومها- مرتبكة، محمرة الخدين، وعندما سألتها بكت (من الفرح ربما)، ولم تجب على أسئلتني إلا بعبارة واحدة «ما بعرف، ما بعرف... ما فهمت شي...» لكن المدربة في الدرس التالي، أخرجت شريطة حمراء، وطلبت إليها الخروج من الصف، وعلقت على كتفها «الرتبة الجديدة». ثم أعلنت تعيينها قائدة للمجموعة.

لم تكن تعلم أن هذا كله، له علاقة بذلك الملازم!

رأته مرة أخرى في حقل الرمي؛ حيث أبدى اهتماماً واضحاً بها، حتى أنه اقترب منها كثيراً، وسألها عن اسمها واسم أبيها وعنوانها... ظنت أنه إعجاب عابر، لكنها تذكرت مدربة الفتوة التي سألتها -كذلك- عن اسم أبيها وعنوان بيتها...

كان أول ما نظرت إليه ميساء (كما أخبرتني)، هو أصابع الملازم! وكانت صدمتها كبيرة عندما رأت خاتم خطبة في يده اليمنى...! «ما الذي يريد مني إذن؟!»

كان وسيما مشوق القامة، قوي البنية، وكانت في

السادسة عشرة من عمرها، طالبة أول ثانوي، ترتدي الزي العسكري مثله، لكن بشريطتين من المخمل فوق كتفيها النحيلتين... «حتى لو كان يريد الزواج، ما قبلتُ به!». إنه أكبر مني بكثير، وعليّ أن أكمل دراستي أولاً...» هذا ما قالت -أخيراً- وهي تحبس دموعها بكبرياء!

تبين أنه حيدرة، أخو الرائد الأرملة، وأنه كان يبحث عن زوجة مناسبة لأخيه، وعندما رآها في باحة المدرسة، في ذلك الدرس الذي تعلمت فيه فك وتركيب البارودة الروسية؛ سأل المدربة عنها وعن أهلها، وزكاها لتكون تلك الزوجة المرتقبة... انقلبت حياتها بعد ذلك! وبدأ ينتابها إحساس غريب، كلما خرجت من المدرسة؛ هو مزيج من الارتباك والفرع... كانت تشعر أنها مراقبة -طوال الوقت- من قبل شخص ما، أو أن سيارة عسكرية ما، كانت تتابع خطاها عن بعد، وبداخلها يجلس ذلك الملازم الشاب! لم تكن لتجراً على الالتفات إلى الخلف، أو حتى التلفت يميناً أو يساراً، فقد يكون مختبئاً خلف نظارة سميكة سوداء، وربما يفكر باختطافها؛ فيدق قلبها وتتوهج أذناها، وتحث خطاها مسرعة نحو موقف الباص... لم تعد تخرج من بوابة المدرسة إلا برفقتي، أو رفقة إحدى زميلاتنا، «كي تصبح عملية اختطافها أكثر صعوبة». ولم تكن تعلم أن الملازم مكلف بمراقبتها من قبل الرائد!؟

رفض والدي الزواج، ليس بسبب فارق السن بينهما، بل لسبب ما، كنت أجهله!

قال: ما زالت صغيرة، وقال: عليها أن تحصل على «البكلوريا» أولاً! وكان هذا رأيي أيضاً، فهي لم تزل طفلة... لكن والد الرائد العجوز تعهد بأن تكمل تعليمها بعد الزواج، وهز سيادته رأسه مؤكداً: طبعاً، طبعاً... لكن أبي أصر على موقفه! ودُهِشت أمي، كيف يرفض عريساً برتبة رائد، يخدم في الإدارة السياسية والتوجيه المعنوي! وقد زارنا بسيارة بيجو 504 رمادية، لا يستطيع الحصول عليها إلا الضباط المدعومين! «عريس لقطة» قالت أمي! وقال أبي مستنكراً، إنه أرمل، ولديه طفلان، ويكبرها بربع قرن على الأقل! وقلتُ: لماذا لا نسألها؟! كانت الملعونة مختبئة، صامتة، وقد عرفتُ من عينيها أنها موافقة، لكن أبي رفض رأيي، وقال غاضباً: نسألها عندما تبلغ السن القانونية...

كان والدي مدرسا للغة العربية. مكتبته تملأ حيطان بيتنا وتزيد، نقلوه من سلك التعليم إلى مؤسسة «الريجبي»، لسبب ما، نجهله⁽¹⁾، عرفتُ -عندما كبرت- أنه كان يسارياً معارضاً، يكره العسكر، وبخاصة بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان وتدميره لمدينة حماه... أختي كانت رضيعة، وأنا

1 - الريجي: مؤسسة رسمية للتبغ والتبناك في مدينة اللاذقية.

صغيرة، ولم أكن لأفهم السبب حينها. أبي لم يتحدث - يوماً - بالسياسية أو يظهر لنا موقفه! (ربما يفعل ذلك في غيابنا). كان يقرأ كثيراً، وكنا نعرف مواقفه من ردة فعله على نشرة الأخبار؛ حيث يبدأ بشتم المذيع، إذا لم يعجبه خبر ما، ثم ينهض ويقفل التلفاز وينزوي ثانية مع كتابه...

قال لأختي: ستصبحين أرملة مثله، في أي وقت! وقال ساخراً: إن دم الجندي على كفه، وإن عقل العسكري، وبخاصة الضابط؛ أصغر من عضلاته وأضيق من فردة حذائه بنمرتين على الأقل، أما أخلاقه فهي أضيق من فوهة مسدس! وقال في حوارات حامية دارت بيننا بعد ذلك: إن قدر الجندي أن يكون قاتلاً أو مقتولاً... ما يتعلمونه هو الموت والحصار والتطويق والإبادة. إنهم صناع حرب، والحرب توظف أبشع الغرائز في البشر. «خدمتُ في الجيش وأعرف ماذا يعني أن تكون جندياً»! وقال: لا تصدقي ما يتحدثون به في الإذاعة والمدارس، عن الوطن والوطنية وحماة الديار والمقاومة... الجيش وقود للسياسيين! ليس في ظل نظام الاستبداد وحده، بل في ظل الأنظمة كلها... والساسة يعرفون جيداً كيف يجعلون الجنود يقتلون ويُقتلون باسم الوطن. إنك لا تعرفين تاريخ هذا الجيش. إنه تاريخ الانقلابات والهزائم. دمروا البلد منذ انقلاب حسني الزعيم⁽¹⁾ ومن أتى

1 - انقلاب حسني الزعيم عام 1949 هو أول انقلاب عسكري في سورية.

بعده من زعماء.

لم يكن من السهل عليّ استيعاب ما قاله أو الاقتناع به! إنه يتحدث معناب «السياسة» لأول مرة، وبحماسة شديدة! ظننت أنه يبرر رفضه لهذا الزواج وحسب، لكن شرحه كان غريباً! ما علاقة السياسيين بالأمر؟! هل يعقل أن يكره أحد جيش بلاده، حتى لو كان معارضاً للنظام؟! البلد مهدد من قبل عدو صهيوني غاشم يتربص به! ومن سيحمي الوطن ويدافع عنه غير العسكر؟! مضت سنوات كثيرة ومريرة حتى فهمت -مثلي مثل بقية الشابات والشبان- أن والدي كان على حق؛ فعسكرة المجتمع وصفةٌ سحرية خبيثة للسيطرة عليه، وتحويله إلى قطيع متجانس ومطيع.

سألها ساخطاً: ما الذي تتعلمونه في مادة التربية العسكرية؟ علوم طبيعية، هندسة، طب، فنون، فلسفة، رقص، موسيقى...؟! إنكم تتعلمون فن القتل! فكُّ وتركيب السلاح، التسديد والرمي وإلقاء القنابل اليدوية... تريد الشعارات الصباحية والنظام المنظم، ليس إلا البداية. حسن، وما هو هذا النظام المنظم؟ هل فكرت في ذلك؟ إنه فن الطاعة والانصياع الجماعي الأعمى للأوامر، دون تردد أو تفكير: أمام سر، تسيرون... يمين در، تستديرون... وقوف قف تتوقفون... وعليكم تنفيذ ذلك حرفياً. من من الطلبة

يستطيع التخلف؟! لا أحد... هكذا يبدأ الأمر، بترديد الشعار
ولبس الكاكي، والزحف على الأكواع، لكنه مقدمة لما هو
أخطر وأقسى، وهو القتل... عندما يأتيك الإيعاز: «نار»...
عليك أن تطلق النار على الهدف، دون مراجعة أو تفكير...
هم من يحدد العدو «عدوهم هم»، وعليك أنت أن تسددي
وتقتلي ذلك العدو... قد يكون الهدف امرأة أو طفلاً أو بناية
تعج بالسكان... حتى لو كانت أمك هي الهدف، عليك أن
تنفذي أوامرهم، وإن لم تفعلي فهم يملكون الحق بقتلك.

× × ×

كنت وحيدة أبي وأمي... وكان أخي الأكبر خضر
(الابن البكر)، وحيداً مثلي، وقد قتل في ظروف غامضة في
لبنان، خلال أدائه الخدمة الإلزامية في الجيش. (هل عرفت
الآن لماذا كنا نحب العسكر؟)... كان برتبة ملازم مجند، وقد
رفّعه بعد موته إلى رتبة ملازم أول شرف... كل ما أذكره،
أنني رأيت والدي يبكي لأول مرة في حياتي! «لقد قتلوا
مستقبلي... قتلوا المستقبل...»، قال ذلك وغطى عينيه
بيديه. ورأيت أمي وهي تضع أختي ميساء في حجرها،
كانت -يومها- صغيرة جداً، طوقتها بذراعيها، وضغطت
عليها بقوة، حتى كادت تخنقها، ولو لم تنتبه عمتي لوجه
أختي المزرق، لما ت بين يدي أمي التي فقدت الوعي من شدة

حزنها على أخي الوحيد...

بعد بضعة أشهر، غيّر أبي رأيه! دخل إلى البيت مسرعاً وهو يسأل عن ميساء وعن تلك اللوحة الملونة التي رسمتها لأخي خضر وهو يرتدي بزة الملازم أول شرف... أخذ اللوحة وغادر البيت مسرعاً! كل الذي قاله «رح يجينا ضيوف»... حتى أمي لم تكن تعلم من هم هؤلاء الضيوف... بعد أقل من ساعتين عاد وهو يحمل صورة خضر، وقد وُضعت خلف زجاج شفاف يحوط به إطار ذهبي أنيق! علّق أبي الصورة في صدر الصالون، ثم ابتعد وراح ينظر إليها بفخر...

لم نعرف سبب هذا التحول المفاجئ في موقفه، قال إنه وافق على الزواج، لكنه اشترط أن يتم ذلك بعد حصول أختي على الشهادة الثانوية! ربما كانت زيارة العريس الأخيرة، برفقة مدير الإدارة السياسية، هي السبب... تبين أن مدير الإدارة صديق قديم لوالدي، وهو رئيس العريس الرائد، وقد وافق أن يكون عراباً له عندما استعان به. كان برتبة عميد ركن، وجاء برفقة حراسه واثنين من مساعديه، في موكب من سيارات سوداء «مقيمة» توقفت بجوار الشط، وكادت تحجب البحر عنا إلى الأبد! لكن الزيارة كانت قصيرة جداً وحاسمة... وافق أبي، وفرحت أمي، وبكت

ميساء كثيرًا!

عندما هموا بالمغادرة، قال العراب الركن لأبي:
«أخي «بو خضر» الفقر مو عيب... انت طول عمرك رجل
عصامي ووطني وأبو شهيد، وتستحق كل خير»... وأضاف
مشيرًا إلى بيتنا؛ أنه آن الأوان كي نهدم هذا البيت المهلهل
ونبني غيره... وشجعتة أمي متفائلة: «الله كريم»، وبقي
والدي صامتًا...

أدمن -بعدها- على الكحول وبقي حزينًا حتى مات،
بعد هدم بيتنا بسنوات قليلة...

ما إن تزوجت ميساء، حتى ترفع الرائد أبو صالح إلى
رتبة مقدم. أضافوا نجمة إلى كل نسر من النسرين الرابضين
فوق كتفيه، وقرروا إرساله -بعد أيام قليلة- في دورة
تدريبية لمدة ستة أشهر، إلى بلاد باردة ملتبسة، لم يعرف
أحد اسمها. لم يسمحوا للعروس بالسفر معه طبعًا؛ وذلك
لأسباب أمنية، ولم يخبرها -بدوره- إلى أي البلاد سيسافر
أو متى وكيف! منعها من مرافقته إلى المطار، وحذرها من
الثروة، والحديث حول هذا الأمر مع أي كان من النساء،
وبخاصة الأهل والأقارب والأصدقاء والجيران، لأن الدورة
سرية للغاية.

ما أدهشني، أن ميساء كانت شابة فائقة الجمال، في الثامنة عشرة من عمرها، فكيف استطاع أن يتركها وحيدة؟! لم يكن شهر العسل قد اكتمل! وكان عليها أن تسجل في الجامعة، فطلب إليها الانتظار، حتى يعود، لكن الجامعة لا تنتظر، ومواعيد التسجيل محددة، ولم يكن أمامها إلا أن تطيع الأوامر...

عادت العروس إلى بيت أهله، كما أمرها سيادة المقدم أن تفعل؛ إذ وضعها أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تذهب مع طفليه لتسكن في قريته الجبلية، مع أهله، أو أن يأتي أهله ليسكنوا معها، في شقته الصغيرة مسبعة الصنع. كانت تريد العودة إلى «ظهر الدب»، تلبية لرغبة أبي وأمي، لكنه رفض، لأن بيتنا قديم وصغير، ولأن «الأولاد» يجب أن يلتحقوا بالمدرسة بعد شهر ونيف... كان يريد أن يضعها تحت رقابة أهله...

رافقها إلى قريته الجبلية بسيارته البيجو الرمادية، وقبل أن يغادر استفرد بها في غرفة النوم، وراح يكرر وصاياه همساً: يجب عليك ألا تنسي بأنك زوجة ضابط، وأن تتصرفي بحكمة ومسؤولية، وأن تدركي بأن الكتمان جزء أساسي في حياتنا، وأن التفريط به، يُعد خيانة وطنية! وأن الأوامر العسكرية مقدسة ويجب تنفيذها، من دون تردد...

وعدها أن يشرح لها ذلك كله في ما بعد، وأكد أن عليها، إذا ما سُئلت عنه من قبل أي كان، أن تقول بأن البلد في حالة حرب، وأنه مستنفر! وإذا ما رغبت في مراسلته أو التواصل معه (عند الضرورة القصوى) فسوف يتم ذلك - حصرياً - عن طريق ضابط محدد، سيقوم هو بالتواصل معها! أعطاه اسم الضابط المستعار، ثم قبلها على خدها وطلب منها أن تصبر، وقال إن هذه الدورة ستفتح له آفاقاً كبيرة...

بعد منتصف الليل ودع أهله وطفليه وغادر، زاعماً أنه مناوب هذه الليلة...

بكت ميساء بعد خروجه، وهذا أمر طبيعي، فالمرأة تبكي لأسباب مختلفة، ما بالك إذا ودّعت زوجاً بحجم مقدم! لكن بكاءها لم يكن بسبب سفره المفاجئ وحده؛ بل بسبب هذا الغموض الذي بدأ يلف حياتها، والذي لم تفهم أسبابه بعد؛ ما جعلها هائمة قلقة تشعر بالغبن، وأنها متروكة دون علة أو ذنب... لا شيء يخيف الزوجة أكثر من الغموض، وبخاصة غموض الزوج، الذي يدفعها إلى شتى الظنون والهواجس، ويجعلها - طوال الوقت - خائفة عليه متعلقة به... ما هذه الدورة التي لا تسمح لها معرفة مكان زوجها ومصيره؟ وقد بكت بعد ذلك كثيراً جداً...! أكثر من عشرين سنة من الدموع والعذاب والخوف والذل والغبن! كم بكت

على صدري وكم شكّت، خلال سنوات الخوف والغموض
القادمة!.

× × ×

كان الخريف قد ابتدأ، وبدأت العواصف ترفع موج
البحر في «ظهر الدب» وتدفعه بقوة ليستعرض رغوته
البيضاء فوق صخورها، ويبلل، برذاذه المالح الممزوج بالمطر،
أشجار الكينا المهيمنة على دارنا... زارتنا ميساء، وكان
همها أن تسجل في الجامعة قبل فوات الأوان. كانت مرتبكة
وحيرى، أمرها سيادة المقدم قبل سفره بالترث! ولم يكن هذا
وحده ما يربكها، بل رفضه القاطع المبدئي؛ أن تسجل في
كلية الفنون، حلمها الوحيد!

«ألم تجدي غير هذا الفرع!؟» قالها متعضّاً... وكانت
علاماتها تخولها التسجيل في أي فرع آخر، لكن عشقها لفن
الرسم والنحت كان طاغياً. وكان أبو صالح يكره الفن:
«هذه موهبة من عند الله، لا تحتاج إلى دراسة وجامعات!
تستطيعين ممارستها في البيت، وفي أي وقت تشائين، أنا على
استعداد لتأمين كافة المستلزمات. علاماتك تسمح لك
بالتسجيل في أي فرع. سجلي علوم سياسية، أو حقوق!
لماذا لا تسجلين في كلية الحقوق أو الاقتصاد السياسي!؟»

جاءت كي تبحث الأمر مع أبي، ماذا تفعل؟ استبعدت

العلوم السياسية والاقتصاد، وعليها أن تختار بين دراسة الفن التشكيلي والحقوق... كان أبي أكثر من شجعها على الرسم، منذ صغرها... سجلها، على الرغم من اعتراض أمي، في دورات عدة، لتعليم الفن التشكيلي بالمدينة، وراح يعلق لوحاتها وأعمالها اليدوية في زوايا البيت وعلى حيطانه، ويعرضها بفخر على ضيوفه، وبخاصة تلك اللوحة التي رسمتها لأخي خضر بلباسه العسكري! أجل حاجات البيت واشترى ما تحتاجه من ألوان وفرش ومستلزمات فنية... كان يحلم أن تصبح ابنته فنانة تشكيلية، لكنه احتار -الآن- ماذا يفعل أو يقول لها، فاكتمى بالصراخ والاستنكار: ولماذا يرفض؟! لماذا يكره الفن؟! لماذا...؟

نصحها والدي ألا تغضب زوجها؛ لكن قرارنا النهائي (أنا وميساء) كان أن تسجل في الكليتين معاً، عليها تستطيع إقناعه -عندما يعود- في دراسة الفن التشكيلي... بحثت عن إحدى لوحاتها القديمة، وقررت تقديمها إلى كلية الفنون، بحسب الشروط المطلوبة. وهي لوحة غالية على قلبها، لأنها لأخي خضر... رسمته -خلصة- بقلم الرصاص. كان يومها يحضر للثانوية العامة، وكان شعره طويلاً أشعث وقد ارتدى قميصاً داخلياً أبيض، جعلته أشعة الشمس يتوهج، وهو يقرأ أمام النافذة... لكنها خبأتها في السقيفة، بعيداً عن عين أمي التي أصيبت بمرض القلب بعد موته، وتصاب

بالاكتئاب، كلما رأت صورته هذه المفعمة بالحياة والحب...

× × ×

عاد بعد ستة أشهر تمامًا...

كان قد اتصل بها مرات عدة، لكنها لم تجرؤ على إخباره أنها قبلت في كلية الفنون. أقام الدنيا ولم يقعدھا، ولم يكتف بمنعھا من الدوام، بل ذهب -شخصيًا- إلى فرع الكلية لإلغاء تسجيلها، وسعى بنفسه لقبولها في كلية الحقوق! وقد تمكن من تسجيلها باستثناء خاص، من وزير التعليم العالي، على الرغم من مضي أكثر من أربعة أشهر على الدوام في جامعة تشرين.

خلال أربع سنوات فقط، حصلت على شهادة الليسانس بالحقوق، وبدرجة امتياز...

لم تفهم سبب هذا التعصب والغضب، وهذا الحرص الزائد على سمعته، حتى علمت أنه نُقل من الإدارة السياسية إلى إدارة المخابرات العامة بدمشق! ولم تكن تعرف الفرق بينهما، لكنها لاحظت البون الشاسع بين سيارة «البيجو» العتيقة التي كانت بحوزته، منذ سنوات قليلة، وسيارة الـ «مرسيدس» الجديدة، التي سلموه إياها مع سائقها! ولم يمض شهر واحد على تعيينه، حتى قام بفرز سيارة رينو حمراء

جديدة، خاصة بها، مع سائقها العجوز الذي اختاره من بين أقربائه...

ظنت أنها تعرف كل شيء عنه، مع أنه كان ممنوعاً عليها التدخل في عمله وشؤونه الأمنية. حتى الأسئلة البسيطة كانت محظورة... وكان مستنفراً دوماً، ولم يكن ليلاً ليلاً ولا نهاره نهاراً... وهو مستعد -دائماً- لمغادرة المنزل في أي وقت، وليس من حقها -أبداً- معرفة السبب! في السابق، كانت تملك بعض الحق في السؤال أو التساؤل، لكنها -اليوم- مُنعت من أشياء كثيرة...! اشترى لها هاتفاً جديداً، وخطاً أمنياً خاصاً، وتم إجبارها على حذف ونسيان أغلب صديقاتها. لم يعد من حقها الخروج في أي وقت تشاء، كما في السابق! باتت تحتاج إلى إذن وموافقة! ولم تعد تستطيع التسوق ولا مصادقة أيّا كان، ولا زيارة أحد (بما في ذلك أهلها)، إلا بعد دراسة أمنية مسبقة، كان يجب على الصديقة أن تبين سبب الزيارة وأن تنتظر الموافقة الأمنية مدة أسبوع أحياناً! وصار الأمر أصعب، عندما وضعوا حراسة مشددة على البناية الجديدة التي تسكنها، والتي تراقب الداخلين إليها والخارجين منها، وحتى العابرين بقربها!

هذا كله، لم يكن شيئاً يذكر بعد، فما إن ترفع -خلال سنوات قليلة- إلى رتبة عميد، وعُين رئيساً لـ «أحد الفروع

الأمنية»، حتى انقلبت عيشتها إلى جحيم لا يطاق... (نعم، أحد الفروع الأمنية! فمن يستطيع معرفة أسمائها؟ إنها محض أرقام، تشبه أسماء المعتقلين في تلك الفروع، الذين تحولوا - لأسباب أمنية أيضًا - إلى أرقام!)...

انتقلنا جميعًا إلى العاصمة دمشق، مع كتيبة كبيرة من أقاربه وأصدقائه وحراسه الموثوقين، وظل أبي في «ظهر الدب»، كي يشرف على إعادة ترميم دارنا العتيقة، كما قيل لنا...

كانت ميساء تظهر معه وترافقه في الزيارات والمناسبات الرسمية تحديدًا، وربما تزوج بأختي لهذا السبب، فهو لا يستطيع أن يلبي دعوة دبلوماسي، أو يزور ملحقًا عسكريًا يقيم عشاء في بيته، دون اصطحاب أختي معه، حيث يرتدي عندها بذلة مدنية وربطة عنق أنيقة، وتسرح ميساء شعرها في صالون خاص، وترتدي أجمل الفساتين التي كانت تشتريها من شتى عواصم العالم. فقد كان يضطر - بعض الأحيان - لصحبته في زيارات خارجية إلى موسكو وباريس ولندن وبرلين وروما ومدريد... الخ، وذلك حسب المناسبة ونوعية الزيارة... كان التجار الكبار يتسابقون لتقديم الهدايا لها ولزوجها، ويكون محظوظًا ذاك

الذي تُقبل هديته من تجار الحميدية⁽¹⁾، وحتى سوق الهال... دارت نصف الكرة الأرضية، خلال بضعة سنوات، حتى أنها ملّت من السفر والسهر والفنادق والبروتوكولات، لكن قرارها لم يكن بيدها، وإذا ما كان الجنرال ضمن وفد مرافق لسيادة الرئيس، وأمرهم باصطحاب زوجاتهم، فلا يستطيع أحد المناقشة، بما في ذلك السيدة الأولى...

كانت تخبرني بكل شيء عن حياتها الخاصة، منذ ليلتها الأولى وحتى الأخيرة، لكنها لم تتحدث أبداً عن حياتها العامة! حدثتني حتى عن موشحات الدم الوردية فوق عظام السرير، وعن نزيفها وفم بكارتها كيف تمزق... وعلى الرغم من أنني لم أكن قد جربت ذلك بعد، غير أنني كنت أعلم - كأني أنشئ - أن للبكرة فم حقيقي، تحيط به شفتان صغيرتان ولسان قصير كمنقار يامة، وكنت أعلم أن للرجال شاربين فوق الشفتين، وخصيتين بين الفخذين، تغطيها عانة كثة سوداء مثلثة خشنة كشعر تيس، في زاويتها السفلى يبرز كائن بحجم قبضة اليد، ذو قبعة وردية كقبعة فطر الغابة، يسمونه «عضواً تناسلياً»! وقد أخافها هذا العضو الثخين، عندما رآته مشرعاً لأول مرة، ثم صارت أطواره أليفة بعدها، حتى عندما تحول - مع السنين - إلى محض مدقة لجرن هاوون بلاستيكي بلا روح، ما يلبث أن يذوى ويصبح بلا فائدة!

1 - الحميدية سوق قديم مسقوف من أشهر أسواق دمشق

لم تكن تخفي عني شيئاً... حتى أنها قالت لي مرة، إنه يمنعها من حلاقة شعر عانتها، لأن الجنرال يحب عيش اليمامة - على ما يبدو - أكثر من الزغلول الأزغب، ويفضل ريشه الأشعث أكثر من منقاره الوردي...

كنت أعرف أدق التفاصيل والأسرار التي عاشتها وتعيشها، فأنا أكبر منها سناً، وهي تعيش وحيدة غريبة في بيتها، مثل أي موقوفة بزنانة منفردة، في فرع من فروع الأمن! وهي ليست ككل النساء، تستطيع أن «تُحرد»⁽¹⁾، ولا تملك حق الطلاق أو التمرد، أو تمتلك القدرة على البوح لأحد غيري! حتى أن سيادته صار يمتنني (لهذا السبب على الأقل)، ولذلك، أهداني هاتفاً أميناً جديداً، كي يتمكن من مراقبتي، وركب - سرّاً ودون خجل - أجهزة تنصت وكاميرات مراقبة في الصالون والمطبخ وغرف النوم، وحتى داخل الحمامات. ولم يكن أحد ليجرأ على نزعها أو تعطيلها.

كانت أمني تنتظر أن تصبح جدة؛ وعندما طال انتظارها، سألتني إن كان «العطل من أختي»! قلت «بل العطل منه هو»! فاستغربت! وذكرني بأن لديه صبيين! ولأنني لا أرغب في أن تعرف الحقيقة، قلت إنه منعها من إنجاب الأطفال، وعندما أصرت على معرفة السبب الحقيقي، أخبرتها

1 - حرد: أبدى استياءً بتقطيب الجبين. لكنها باللهجة الشامية مغادرة الزوجة لبيت الزوجية إلى بيت أهلها محاصمة.

أنه أجبرها على إجراء عملية تعقيم...

لم تكن لتفهم معنى ذلك، ولا أنا طبعًا. أخبرتها بما قاله سيادة العميد لميساء: عملية بسيطة جدًا، يتم تنفيذها عن طريق ربط قنوات فالوب، تمنع البويضة من الدخول إلى تجويف الرحم، ونستطيع تحرير المبيضين طبعًا، عندما نفكر بالإنجاب.!

كم كان أنانيًا وظالمًا وخبثًا!! لكن، حتى لو أن ميساء كانت ملهة بالمخاطر الحقيقية التي تنتظرها، فهل كانت تستطيع الرفض؟! ومن أين لها أن تعرف بأن الشرع يحرم الإعقام ويجرمه، وأنه -حسب القانون- يحتاج إلى موافقة خطية من قبل الزوجين، تبين -بشكل جلي- رغبتهما بإجراء العملية، وأن الأطباء ملزمون -قبل التنفيذ- بشرح كافة المخاطر التي قد تتعرض لها المرأة، وبخاصة تزايد فرص الحمل خارج الرحم، وخطر الإصابة بسرطان الثدي، فضلًا عن أنها لن تنجب بعدها أبدًا... لكن سيادة الجنرال اقتادها إلى عيادة خاصة، لا علاقة لها بالقانون ولا بالمخاطر! وقد علمنا -ميساء وأنا- بعد إجراء العملية بوقت طويل؛ أنها جريمة قتل موصوفة... واكتشفنا -أيضًا وأيضًا- أنها تستخدم في المعتقلات كوسيلة لابتزاز النساء والرجال، على الرغم من أنها عملية جراحية مكلفة، بعد أن سمعنا عن

عمليات الاغتصاب وبتز الأتداء والأعضاء في المعتقلات، وغيرها من الوسائل البشعة التي تجري هذه الأيام! لم يكن أحد غيري يعرف ما حدث، فميساء لا تجرؤ على إخبار أي كان بأسرارها الشخصية التي يعتبرها الجنرال جزءاً من أسرار الدولة؛ وأنا -بدوري- لا أجرؤ على البوح بها لأحد!

نبهها -منذ اليوم الأول- أنه لا يريد الإنجاب الآن، ثم قال إن لديه ولدان، ولا يرغب بالمزيد! لكن رحمها كان خصباً، لدرجة أربكته، فقد حبلت وأجهضت مرات عدة، ولم تنفعها العقاقير ولا الحقن ولا الواقي الذكري، ولا حتى الحلقة المهبليّة «اللولب». وكان -كل مرة- يحملها وحدها المسؤولية، فأمرها -أخيراً- أن تجري هذه العملية «البسيطة» التي أدت -بعد موته- إلى إصابتها بسرطان الثدي!

- 2 -

توقفتُ عند عبارة «إصابتها بسرطان الثدي» ووضعتُ خطأً تحتها وتحت عبارات وتلميحات كثيرة غيرها؛ فالتعقيم لا يؤدي بالضرورة إلى الإصابة بسرطان الثدي! هذا ما أكدته لي إحدى الطبيبات، والأهم من هذا، اعترافها في هذا المقطع -دون قصد- بقولها الصريح: «كنت وحيدة أبي وأمي»! وهذا ما أعرفه جيداً! وهي تعرف أنني أعرف! مرة تقول -عند حديثها عن استشهاد أخيها- إنها رأت أمها وهي تضع أختها ميساء في حجرها، وكانت -يومها- صغيرة جداً، والآن تقول بأن ميساء هذه رسمت أخاها خضر -خلصة- بقلم الرصاص. وكان يومها يحضر للثانوية العامة...! ثم إن الأخ الوحيد غير ملزم بالخدمة العسكرية أصلاً! فمن هو خضر،

ومن هي ميساء هذه؟ وكيف تمكنت من اختراعها؟ ولماذا؟

لا تتقن الرواية الكذب، لأن العين التي تكتبها إذا كانت واحدة، فالعيون التي تقرأها، أكثر آلاف المرات من عدد صفحاتها وربما، كلماتها وأحرفها! فهل تستطيع الرواية أن تصل إلى الحقيقة عن طريق التكاذب والتّكرار؟! لقد اخترعتُ شخصية ثانية وراحت تتحدث عنها ببساطة واطمئنان! من السهل أن يفعل الكاتب ذلك، لكن كيف يقنع الآخرين بما كتب؟! هل نسيْتُ ما كتبتَه سابقًا: «كنت وحيدة أبي وأمي»، أم أنها لم تنتبه، فأخطأت دون قصد؟! الخطأ -هنا- ليس طباعيًا! والأخطاء الطباعية واردة، لكنها زلة لسان، تكشف النوايا الحقيقة لصاحبها، وما يخفيه بين السطور من نوايا...

لا بأس يا ست «طهران زهر البان»، قلت لي إنه ثمة تشابه بالأسماء، وإنك ستقولين الحقيقة! أقسم إن اسمك -أيضًا- غير حقيقي... هذا واضح، وقد فهمتُ لعبتك وقبلتُ أن أَلعبها. تريدان أن ترتدي قناعًا؟! لكنك بذلك إنما تكشفين عن وجهك الحقيقي! أم تريدان أن تصلي عن طريق «الكذب» إلى الصدق؟ الحقيقة لا تحب الثياب المزركشة، فهل تخجلين من الحقيقة العارية، أم تخافين من قولها؟ لا بأس، ليكن ما تريدان! ومن يدري، قد تكونين معذورة،

لكننا - لحسن الحظ - نسير في الطريق الصحيحة، لا بأس من الخجل والكذب اللذيذ والتخفي؛ فالفن يقوم على هذا النوع من التكاذب، أكثر الفنانين كذبًا، أكثرهم صدقًا! وطالما نتحدث الآن عن الجنرال، فلا فرق بعدها، إن كنت أنتِ زوجه أم أختك ميساء...

وضعت خطأ آخر تحت جملة «كنت وحيدة أبي وأمي»، وميزتها بالأصفر، كي أرى ردة فعلها... لكنني لم أتمكن من متابعة القراءة... أصابني ضيق شديدة ورغبة غامضة في الصمت؛ عندما تذكرت أنها أنثى فقدت أحد ثدييها؛ ولذلك، ربطت يديّ بالسريـر وغطت وجهي، في تلك الليلة الماجنة...

× × ×

لم أصدق ما رأيته! ظننت أني أخطأت العنوان... فقد اقتلع بيتنا القديم من مكانه، وعدد آخر من بيوت الحي القريبة، لم يبق له من أثر! تحولت الحديقة الصغيرة إلى ساحة من الرمل والحصى والحفر الكبيرة المليئة بالماء... اقتلعت أشجار الكينا العتيقة التي كانت تنحني على بيتنا وبيوت الجيران، لم يبقَ منها سوى أوراقها التي ما زالت خضراء! وهـيء لي - ولا أدري لماذا - أن مكروهاً ما قد أصاب أبي، لو لم أرَ الأشجار مرمية في مكان قصبي، وأشاهده يقف

هناك بين الجرافات والرافعات، يراقب العمل، وقد حمل بيده قضيبًا، ولبس «جزمة» كاوتشوك حمراء، وارتدى قبعة رجال الأعمال البلاستيكية اللامعة التي تشبه قبة المزار، وراح يصدر أوامره بساعديه، لأن الضجيج لا يسمح لأحد أن يسمع ما يقول...

كان عدد البلدوزرات الضخمة والجرافات الصفر والشاحنات الكبيرة والرافعات العملاقة، أكبر بكثير من صخور «ظهر الدب» العالية! وكان معظمها تابع للجيش، أو لوزارة الأشغال أو البلدية أو وزارة النقل أو الزراعة أو النفط... كان عدد قليل منها يتبع لشركات خاصة تبرعت للمشاركة في هذا المشروع! أما العاملون والمهندسون والمراقبون... فجميعهم من العسكر وموظفي الدولة! أبي كان هو المشرف العام على التنفيذ!

أكوام البحص والرمل الضخمة جعلتني أظن في البداية أنهم جاؤوا لكي يردموا البحر! لكن تبين أنهم سيقومون ببناء قصر كبير للجنرال «أبو صالح»... خرجت من السيارة الأمنية التي أقلتني إلى المكان، ووقفت أتفرج مع النساء والأطفال الغرباء الذين احتشدوا لمراقبة ما يحدث...

لم أكن أتخيل أن يكون الدب الشامخ ضعيفًا لهذه الدرجة! كنت واثقة به، متأكدة من أنه قوي راسخ

كالجبل، لا أحد يستطيع ترويضه أو هدمه، ومهما ساءت الأحوال فهو لن يركع... ألم يصمد منذ الأزل أمام أعتى العواصف والزلازل؟! ألم يقف في وجه البحر ويصد أمواجه عنا! أليس هو «من كان يحمينا من الغرق»؛ كما كان أبي يقول... رحت أبكي بحرقة وصمت، لم أجروء على الاقتراب من أبي خضر (والدي)! جئت من دمشق كي أزوره في شقته الفارهة التي اشتراها في أرقى أحياء اللاذقية؛ لأنني اشتقت إليه، لكنني طلبت من سائقي أن يعرج على «ظهر الدب» أولاً، كي أرى بيتنا القديم... وليتني لم أفعل...

عدت دون أن ألتقي به... وحاولت -طوال الطريق- أن أقنع نفسي بأن ما رأيته محض كابوس! كانت أمي تزوره بين حين وآخر، وتعرف كل شيء عما يحدث؛ لكنها لم تخبرنا -أنا وأختي- أنهم سيقتلون الدب الذي كنا نحب، وينزلونه عن عرشه. يبدو أن هذا -أيضاً- كان سرّاً من أسرار الدولة! لكن هذا السر سرعان ما تحول إلى قصر بحجم بارجة حربية عملاقة، تقف على حافة الشاطئ، يحميها من اليباسة سور مرتفع ذو أبراج مرتفعة، ويقف على بابها حراس مسلحون... بارجة، يقال إن قبوها العميق يحتوي على مستودعات ضخمة، وسجن كبير وزنازين ضيقة، وفوق سطحها مهبط خاص بالحوامات، ومنازة تضيء الليل بالأحمر والأزرق، وبرج من رخام للمراقبة، مع ملحق من

زجاج له شرفة خاصة، صممها والدي بنفسه، كي تصبح مكان إقامته...!

سرعان ما تحول اسم قريتنا «ظهر الدب» إلى اسم جديد هو «البارجة»! هكذا سمي أهل القرية القصر، مستبدلين بسهولة اسم قريتهم باسمها... ولم يمض وقت طويل حتى أصبح أبو خضر متعهداً مشهوراً، ليس في مدينتنا وحسب، بل في أنحاء البلاد كلها، يمتلك في كل مدينة بيتاً أو قطعة أرض أو بستاناً... لكنه ذات ليلة انتحر... جلس وحيداً، بمواجهة البحر، على الشرفة الزجاجية للبارجة... أكل خروفاً مشوياً على الفحم، وشرب كمية هائلة من الويسكي الفاخرة، ثم صعد فوق البرج الرخامي، وألقى بنفسه فوق الصخور، كما كان يفعل سابقاً، العشاق والممسوسين والقانطين...

لم أستطع أن أصدق ما حدث، حتى الآن! كان أبي يتألم، يصارع وجدانه بصمت؛ منذ أن وافق على ذلك الزواج المشؤوم... منذ أن قال له عميد الإدارة السياسية: «أخي بو خضر الفقير مو عيب... انت طول عمرك رجل عصامي ووطني وأبو شهيد...» منذ أن أشار إلى بيتنا وقال: «آن الأوان لهدم هذا البيت المهلهل»؛ وأبي يصارع وجدانه... لم تسعفه السلطة ولا الثروة المفاجئة ولا صهره المتنفذ، كما لم يسعفه

الإدمان على الخمرة، في إسكات صوت ضميره الحي الذي
انتصر عليه أخيراً...

قلت في نفسي، وليساعمني الله: البحر -أيضاً- يعرف
كيف ينتقم...

× × ×

كنت أقضي كل عام -مع أختي- شهراً كاملاً من
فصل الصيف، في هذا القصر المهيّب! وكان أهالي قرية
«البارجة» -نساء ورجالاً- يتجمعون أمام الباب الحديدي
العلاق كل يوم، وبخاصة عندما يعلمون بوجود سيادته،
أو وجودنا... يصطفون بانتظام غريب في طابور طويل أمام
المحرس، كما يحدث في الدول الراقية، لا شيء يفرح سيادته
كالنظام! عندما يرى صف الطوابير المنتظم يشعر بسعادة
غامرة... النظام هو الوطن، كان يقول، خط مستقيم...
وكثيراً ما أوقف مقابلة الناس وأمر بطردهم إذا ما نظر من
النافذة ووجد أن الخط ليس مستقيماً! والناس يعرفون ذلك،
فينتظرون ساعات طويلة تحت الشمس، كي يحظوا بلاقائه،
ولو لدقيقة واحدة! منهم من يريد أن يؤجل ابنه عن الخدمة
العسكرية، ومنهم من يريد أن ينقل ابنته إلى مكان أفضل،
ومنهم من يريد أن يتظلم أو يشكو، أو يبحث عن وظيفة
مناسبة لزوجته... الخ، وكلهم يرغب بتقديم هدية ثمينة

تليق بمقام سيادته... أما أولئك الذين يودون أن يعرفوا مصير
أبنائهم المعتقلين السياسيين، فكان الحراس يطردونهم، ولا
يسمحون لهم حتى بالاقتراب، فيدفعون بنسائهم لمقابلة
أختي أو أمي أو مقابلي أنا على الأقل؛ راجين أن يصل
صوتهم إلى سيادته، بشكل أو بآخر!

ومن الطريف، أن يتحول اللقاء بالجنرال إلى تجارة
رائجة، أخذ يمارسها بعض السماسرة والوسطاء من الأقرباء
أو الأصدقاء، وقد اكتفى البعض بالاعتماد على هؤلاء
«المقربين»، كي ينقلوا صوتهم إلى سيادته، مقابل ليرة
ذهب أو مبلغ من المال تحدده أهمية الموضوع وملابساته؛
فكل قضية لها سعر، ولكل طلب ثمن! فمن يريد أن يتوسط
لمهرب بضائع، ليس كمن يريد أن يشفع لتاجر مخدرات أو
سلاح، ومن يريد أن يسأل عن مصير مزور عملة، ليس كمن
يريد أن يستفسر عن مصير معارض أو معارضة معتقلة. وقد
استشرى الأمر لدرجة أن الجنرال أمر بالقبض على بعض
هؤلاء، وحبسهم لديه في قبو القصر.

ما يهمني هنا، ليس هو، ولا بارجته، ولا هؤلاء
السماسرة أو الزبائن، بل تلك النسوة المعتقلات اللواتي تم
القبض عليهن كرهائن عن أزواجهن أو أولادهن الهاربين من
وجه السلطة، أو تلك الشابات اللواتي خرجن بالمظاهرات

أو كن ناشطات في إسعاف الجرحى وتقديم الطعام أو الدواء أو الملابس، للنساء والأطفال والمرضى المحاصرين في الغوطة وغيرها، وأولئك المشردين الذين هُدمت بيوتهم وهربوا من تحت القصف إلى ساحات دمشق وحدائقها... كان تنظيف أوساخهم، وإسعاف الجرحى الذين أطلقوا عليهم النار، ممنوعاً...!

عرفتُ قصصاً، لا يصدق العقل أنها يمكن أن تحدث في عصرنا، ورأيت أمهات بائسات يائسات حقيقيات، حاولن تقبيل يدي وقدمي، وعيوناً غارقة بالدموع، تستجير بي وتستعطف قلبي. كنت أعرف بعضهن منذ الصبا، بنات ضيعتي وجيلي. وكان يجب علي أن أكون قاسية حازمة معهن، وأن أضع مكان قلبي حجراً أصم، ولساناً أبكم...!

عرفت تفاصيل سيُكتب عنها مئات، بل آلاف الكتب التي تصف ما حدث وما يحدث في أقبية العار تلك... وفي بعض الحالات بكيّت مرغمة وسالت دموعي أمامهن على عنقي دون أن أشعر، وعندما وصل -ذلك- إلى مسامع سيادته، وعرف أنني أعرف الكثير، زجرني ووبخني واتهمني، ليس بالتعاطف معهن، بل بأنني أقبض منهن مقابل خدماتي! نعتني بالقوادة والعاهرة وخائنة الوطن، ولم يتورع عن طردي فوراً من البارجة، ومنعي من الدخول إليها، مهدداً

بحبسي، إذا وصلتته عني أي ملاحظة أو سلوك غير سوي،
وبقطع لساني إذا نطقت بأي كلمة تمس أمن البلد وسيادته!

أكثر من كان يكرههم ويحتقرهم هم المتظاهرين
الشباب. «بدهن حرية!!^(١) طيبب...» أما الناس العاديون:
الأقارب وأبناء البلد والجيران والمعارف من الموالين، وأولئك
القادمين من المدن والأرياف البعيدة، الذين يحملون في
جيوبهم أخبارًا وأوراقًا مشبوهة؛ فكان على استعداد دائم
لاستقبالهم والترحيب بهم، وكان يفضل أن يزوره بعضهم
في البارجة، وليس في فرع التحقيق، وذلك بسبب سرية
العمل وإبعاد الشبهة عن المخبرين! كانوا مستعدين لتقبل
حذائه، كما كان هو مستعدًا دائمًا لمساعدتهم والاستماع
إلى أقوالهم وشكواهم، ولا يتأخر -بعض الأحيان- عن تقديم
الأموال لهم!

كانت الحرب قد بدأت، والقرار قد اتخذ: «إما كل
شيء أو لا شيء!» وغرق الجيش، وبخاصة المخابرات، في
بحر من الدم. ولم تعد ميساء ترى زوجها إلا لمامًا، فوجدتها
فرصة مناسبة لتكمل بعض اللوحات التي بدأت برسمها،
ثم ركنتها جانبًا: طبيعة صامتة، زخرفة، منمنمات...
فشلت بممارسة اختصاصها في الحقوق، وملّت من القراءة؛

1 - يريدون الحرية

فاستسلمت لظروف حياتها... أما حينها للرسم فلم يتوقف يوماً، لكن انشغالها وسفرها الدائم منعها من إكمال المشاريع التي تبدأ برسمها، متحمسة كالعادة، ثم فاقدة لرغبتها بالحماسة ذاتها! كانت تعيش حياة هنيئة باذخة، لا ينقصها شيء ولا يعكر صفوها مكره غير القلق على زوجها وابنيه «صالح وعلي» اللذين تركا الجامعة وحملوا السلاح دفاعاً عن الوطن، وعلى أخيه الملازم القناص «حيدرة» الذي أصبح برتبة رائد في الحرس الجمهوري...

تقضي الصيف في البارجة بجوار البحر، وتكنكن في الشتاء داخل شقتها الفارهة، وكى تقتل الوقت، قررت أن تعود إلى الرسم! لم تغير الحرب شيئاً يذكر في حياتها الرتيبة، لكن تنقلها لم يعد آمناً وحياتها صارت متوترة، يغلب عليها الترقب والخوف، فانتقلت -بأمر منه- للسكن في البارجة، وتحويل ركناً من قصرها، إلى مرسم واسع يطل على ذلك البحر، لكنها طلبت إليه أن يسمح لي بمرافقتها، فوافق على مضض؛ شريطة أن أقفل فمي وأمتنع عن مقابلة الناس...

× × ×

كنت أسمع باغتصاب النساء داخل الفروع الأمنية، وكانت ميساء تسمع مثلي بالتأكيد، لكنها لم تكن تريد

أن تصغي لتلك الأقاويل أو تصدقها. وكيف لها أن تصدق وهي زوجة جنرال همام ذائع الصيت، له كل هذه المهابة والاحترام والتقدير، حتى من قبل سيادة الرئيس... وصفه رفاقه أنه ضابط استثنائي فذ مخلص ومحبوب، ليس من القيادة العسكرية وحدها، بل السياسية أيضًا! من من الوزراء أو النواب أو قادة الحزب الحاكم كان يجروا أن يرد له طلبًا...! طلباته كانت أوامر، وكان يملك الحق بإلقاء القبض على كل من يخالف أوامر أو ينتقده من المسؤولين... أما المرافقين وعناصر الحراسة والسائقين... فكانوا يحترمونه لدرجة أنه إذا ما صفع أحدهم، أو صرخ في وجهه: «وطي راسك يا حيوان»، نكس المسكين رأسه، ولم يعد يجروا على النظر في عينيه طوال شهر، بل يكتفي بالقول حاضر سيدي... أمرك سيدي... حتى أنه صفع مرة ضابطًا شابًا برتبة نقيب، فخرّ على حذائه وراح يقبله وهو يكرر «والله غلطان يا سيدي... سامحني يا سيدي...» ولا يكف عن ذلك ولا يكتفي، حتى يركله بقدمه ويقول له: عد إلى عملك... لكن أحدًا منهم لم يذكر أو ينوه إلى أنه كان يعاني من رهاب مزمن من الفقران والصراصير، وأنه يهرب من المكان الذي يكتشف وجودها فيه! كان هذا الوسواس القهري - أيضًا - سرًا خطرًا من أسرار الدولة، لا يعرفه أحد، ولا يحق لأي كان أن يطلع عليه... وقد رافقه هذا السر إلى أن مات،

فانتشر من بعده، وبات معروفًا للجميع...

كيف تصدقين هذه الخزعبلات! كانت تقول لي، وتضيف بأن سيادة الرئيس يثق به شخصيًا، حتى أنه اتصل به -أكثر من مرة- وكلفه بمهمات خاصة، لم يكن يفصح عنها أو يبوح بها لأقرب المقربين إليه، بما في ذلك هي طبعًا!

فاجأها مرة بسؤال لم يخطر على بالها! كان قد شرب زجاجة وسكي كاملة! مال على نهدها في غرفة النوم، وقال فجأة: هل ترغبين أن أشتري لك كلبة؟ لم تعرف بماذا تجيب!! ولم يكن السؤال مناسبًا... وكى تطمئن، استلقى على السرير فاتحًا ساقيه شاخصًا إلى السقف، كما لو أنه يحلم، وراح يصف لها الكلبة التي يرغب في شرائها: نوعها حجمها لونها... كان يتحدث كما لو أنه يعرفها ويراهها... وفي لحظة حب نادرة، قال لها بعد السرير إنه سيسميها «لولو»، وأخذ يقص عليها قصة الكلبة لولو التي هاجمت فرع التحقيق بحثًا عن أحد الموقوفين:

وجدت نفسي مضطرًا لطلب معلومات كاملة ومفصلة عن تلك الكلبة العجيبة، حتى أن مساعدي استغرب الأمر! هل تعلمين لماذا طلبت ذلك؟ لأنني ما إن رأيت عينيها حتى وقعت في غرامها... سأختار لك واحدة تشبهها تمامًا:

حجمها صغير لدرجة أنها إذا عضتك لا تشكّل خطراً على حياتك. وهي رشيقة كالقطة، تملك قدرة فائقة على اللعب والهرب والاختباء والمناورة والترّبص بك. اسمها «لولو»، كلبة بيضاء كاللؤلؤ يغطي جسمها صوف كثيف. ومع أنها من فصيلة الثعالب، طويلة الخطم، غير أنها متدلّية الأذنين، لطيفة الشكل، كالعاب الأطفال. وهي متوترة وشرسة بشكل مضحك، إذا اقتضى الأمر. عيناها سوداوان مستديرتان، مثل زرين من البلاستيك، تلمعان خلف خصلات غرتها الطويلة. قال الطبيب البيطري لصاحبها مؤنس إن غرتها هي السبب في توترها وشراستها. ولذلك نصحه أن يقصها بين فترة وأخرى. لكن تلك الغرة -على ما يبدو- كانت جزءاً من طبيعتها وهويتها، فقد اكتشف مؤنس عندما قص غرتها، أنها فقدت حيويتها وطرافتها؛ كما فقدت بريق عينيها وذكاءها الحاد، فلم يعد إلى ذلك ثانية... وقد ورد في المعلومات التي وصلتني أن مؤنس كان على علاقة خاصة بها، وعندما طلبنا الطبيب البيطري وحققنا معه اعترف بأن علاقة مؤنس بها كانت غريبة، وأن مؤنس قال إنها تكاد أن تنطق، وطلب من الطبيب أن ينظر في عينيها، وقال إنه لم ير في حياته شبيهاً لهما... ردود أفعالها المعبرة، قدرتها على الإصغاء والفهم أحياناً، والأهم من كل ذلك تعلقها العاطفي بصاحبها، لدرجة تكاد تكون بشرية. تودعه بطريقة

عجيبة. تحضر حذاءه. تصوري! تنط على ركبتيه. تلحس يديه. وعندما يخرج ويغلق الباب خلفه، تنبح مرتين بصوت لا يخلو من الشجن. كما أنها تشعر بقدومه عن بعد، فما إن يصل إلى مدخل البناية، وعلى الرغم من أنها تعيش في ملحق بالطبقة السادسة، حتّى كانت تنبح ثلاث مرات متتالية، وتقف عند الباب منتظرة قدومه، ملوحة بذيلها القصير المدوّر. وعندما يدخل، تقف على قائمتيها الخلفيتين وتنط حوله، مرحلة راقصة مستعرضة جذلة، وهي تصدر تلك الأصوات المعبرة، التي تشبه الكلام... أعرف أن أصحاب الكلاب -كلهم- يبالغون في وصف كلابهم، لكن بدا لي أن «لولو» هذه كانت كلبة استثنائية بالفعل، ولا بد من الحصول على واحدة مثلها... وكى أتأكد من هذه المعلومات الغريبة أمرت بجلب «صفاء» زوج مؤنس، معرزة مكرمة، وقمت أنا شخصياً بالتحقيق معها مدة أسبوع كامل! كانت خائفة جداً، لكنني تمكنت من إقناعها بأننا نبحث عن تلك العصاة المسلحة التي اختطف زوجها، وأن لولو هي الوحيدة القادرة على إرشادنا، للقبض على المسلحين وتحرير زوجها... وسرعان ما بدأت بالتعاون معنا...

كانت هي من تعتنى بالكلبة، وتزين رقبتها بأطواق من الخرز والفراشات القماشية الملونة. وكان ابنهما الوحيد

يلاعبها ويسمّيها «أختي». يلهو معها ويسمح لها باستخدام ألعابه والنوم في سريره. لكن تعلقها بمؤنس كان أمراً مختلفاً تماماً. فهو من كان يطعمها وينظفها ويمشط شعرها ويحدثها، ويخرج معها للنزهة مرتين أو أكثر في الأسبوع. وكان أهالي الحارة يشعرون بذلك اللؤام بينهما، ولم تكن نظراتهم تخلوا من الاستهجان والتعليقات الساخرة، الممزوجة بالغمز واللّمز... لكن أحداً منهم لم يصدق أنها اختفت بتلك الطريقة الغريبة التي تشبه الخيال...

ألقينا القبض على مؤنس لأنه كان مطلوباً بسبب ميوله الإرهابية. وقد أمرت باعتقاله قبل أن يهرب خارج البلاد... سألتُ صفاء إن كانت تعلم من الذي اختطف زوجها فأقسمت إنها لا تدري، وشرحت لي بالتفصيل ما حدث، وكنت على علم بكل شيء:

ذات ليلة، قبل بزوغ الفجر، توقفت سيارة دفع رباعي «مفيمة»، أمام بنايتنا في حي المزة، وخرج منها أربعة من الملتحين المدججين بالسلاح، ودخلوا مسرعين. وبعد أقل من ربع ساعة، سمع سكان البناية صوت لولو يلاً مطلع الدرج، ثم رأوها تخرج وحيدة إلى الرصيف وهي تنبح بذلك الصوت الغريب الذي يشبه الاستغاثة أو طلب النجدة... وأكدت صفاء أن أحداً لم ير أو يعلم بما حدث داخل الشقة.

لم يجرؤ سكان البناية على التدخل أو حتى الاستفسار! استيقظوا على أصوات أعقاب البنادق وهي تقررع باب بيتنا بقوة، وسمعوا زوَّار الليل وهم يقتحمون الشقة بصخب، لكنهم أغلقوا أبواب بيوتهم، كما أمروا، وراحوا يتنصتون من خلفها، على صراخي وبكاء ابني الصغير ونباح الكلبة وشتائم المسلحين... وقد رأيتهم أخيراً، من خلف شقوق النافذة، عندما خرجوا من البناية، وهم يجرون مؤنسًا، إلى السيارة «المفيمة»، مقيد اليدين إلى الخلف، محني الظهر إلى الأمام، وقد أخفوا رأسه داخل كيس أسود... غادرت السيارة المكان بسرعة صاخبة. وحلّ صمت عجيب، على الحارة وسكانها. حتى لولو اختفى صوتها تمامًا، ولا ندرى أين ذهبت...

اقتنعت صفاء بأن المسلحين هم من فعل ذلك، وبأننا على علم بما حدث، ووعدتها بالبحث عن زوجها والإفراج عنه في أقرب وقت... وخرجت من الفرع وهي تشكرني وتدعو لي بالتوفيق وطول العمر... لم يخطر ببالها أن لولو لحقت بسيارة الدفع الرباعي، دون أن يشعر أفراد الدورية بها... كان الضوء قد بزغ. وكانت رائحة مؤنس تملأ أنفها. ولم يكن صعبًا عليها أن تتابع السيارة أينما اتجهت... لم يكن الأمر سهلًا عليها بالتأكيد، لكنها وصلت أخيرًا إلى الفرع، وكنت يومها

مناوبًا... وهناك، عندما رأت الباب الحديدي المتحرك يغلق في وجهها، توقفت لاهثة، لكنها سرعان ما قفزت فوق السور، وتمكنت -على ما يبدو- من رؤية مؤنس وقد أنزلوه من السيارة، وربطوا رقبته بحبل، وراح أحدهم يجره خلفه، نحو باب قبو منخفض، بينما شرع الباقون بركله وشتمه وضربه بالسياط كالعادة... كادت تنبح، لكن الخبيثة كتمت صرختها، ولحقت بهم متسللة بين أرجلهم...

لم يفهم العناصر ولا المحققون، من جاء بهذه الكلبة إلى هنا، وكيف تمكنت، من التسلل والدخول إلى هذا المكان السري المحصن بالأسوار وأبواب الحديد والبنادق وكاميرات المراقبة. سمعوا فجأة نباحًا شرسًا يشق الصمت المطبق في القبو، فاندھشوا. ظنوا أنه صوت موقوف فقد السيطرة على نفسه فراح ينبح كالكلاب. لكنهم رأوها أخيرًا تقف في مر الزنازين الطويل، بيضاء صغيرة يزين عنقها طوق من الخرز الأزرق وفراشة حمراء من الحرير، فظنوا أنها تخصني، لكنها أخذت تنبح بقوة، كما لو أنها تحتج. وتجوح بصوتها الممطوط مثل أم فقدت صغارها. غير مدركة خطورة المخالفة، والموقف الذي وضعت نفسها فيه... ولا عابئة بصدى نباحها الذي فجّر المكان.

سمعت صوتها من مكتبي، واستنفر الفرع، وعمّ

الاضطراب، وأمرت بإقفال الزنازين والكوى، ووقف التحقيق والتعذيب، وإلقاء القبض فوراً على تلك الكلبة السائبة؛ فهجم العناصر عليها، وتجمعوا حولها، وطوقوها، ظناً منهم أن الأمر سيكون سهلاً عليهم، وعندما عجزوا عن الإمساك بها، حاولوا التودد إليها بالكلام وتقديم اللحم والمعلبات، لكنها كانت ترفض ذلك وتقفز من بين أيديهم وأقدامهم، هاربة من مر إلى آخر، فيركضون خلفها من جديد، صاخبين ملوحين بسياطهم وهراواتهم... وعندما تمكنوا أخيراً من تطويقها وحصرها في غرفة التحقيق، تحولت إلى وحش صغير، وكشرت عن أنيابها، وكنت أنا أراقب الموقف عن بعد، فأخرجت مسدسي، وأطلقت النار بين عينيها...

سألته ميساء عندما أكمل قصته، إن كان قد وفى بوعدده لصفاء زوجة مؤنس، فقال مستغرباً سذاجتها: مؤنس... مات بعد كلبته بوقت قليل... رفض الحيوان أن يعترف بشيء، فمات تحت التعذيب...

كانت تلك المرة الوحيدة -ربما- التي أفصح فيها الجنرال عن وحشيته! ولو أن أحداً غيره حكى لها هذه الحكاية لما صدقت. وبدأت تشك به وتستغرب تصرفاته، وبخاصة بعد «الحرب الكونية» التي شنّها الإرهابيون على سورية! كانت تضطر إلى الاتصال به أحياناً، إذا غاب فترة

طويلة، كي تطمئن عليه... وأذكر أنها في إحدى المرات، وضعت السماعة وحدقت بي طويلًا وهي تميل برأسها وتصطك من الخوف، وعندما سألتها ما الأمر؟! قالت: «إنه سكران! يتحدث بكلام غير مفهوم وجمل غير مترابطة»... حاولتُ أن أخفف عنها، لكنها انفجرت بالبكاء، ثم راحت تتذكر وتحدثني كيف قال لها مرة إن الصراصير بدأت تتسلل من القبو إلى مكتبه في الطبقة العلوية! وعندما عاد إلى البيت وسألته عن تلك الصراصير، استغرب سؤالها، وأنكر! ومرة أخرى قال إن الباب انفتح عليه فجأة، ودخلت منه كتائب من الفئران والجردان... ومرة ثالثة قال: إن الدم تسرب من سقف مكتبه، وسال على صورة سيادة الرئيس... ومرة، اتصلتُ به بعد منتصف الليل، وسمعتُ أصوات نساء يصرخن ويستنجدن بالله وأنبيائه، وبالإمام علي وأتباعه... لكنه أمرها ألا تتصل به بعد الآن، وأغلق هاتفه في وجهها!

كانت محقة في هواجسها، وهو محق -ربما- في سلوكه الغريب! ولم يكن سلوكًا جديدًا، لكن أختي تأخرت كثيرًا حتى اكتشفته واقتنعت به! فقد أمر بتصفية المئات تحت التعذيب، وقتل العشرات في مكتبه، بمسدسه الشخصي، قبل أن يقتل تلك الكلبة الصغيرة... وهو اليوم في حالة حرب مصيرية، لا ينتصر فيها القاتل ولا المقتول! ويقال إنه يخوض المعارك في النهار ضد المسلحين، وفي الليل يأمر

الجلادين باغتصاب المعتقلات لديه، سواء خسر المعركة أو ربحها... ويقال إنه هو من أمر بصلب مئة شاب من جوبر، وبتز أعضاءهم مع الخصيتين؛ عندما قُتل ابنه البكر صالح، في حي جوبر الدمشقي، وقد نُفذ الأمر على دفعات، لضيق المكان! فكلما مات منهم عشرة، بسبب النزيف، شحطوهم إلى مهجع الجثث، وصلبوا عشرة آخرين مكانهم! ويقال إنه هو من أمر بتصفية ما لديه من ضباط انشقوا، أو حاولوا الانشقاق، عندما قُتل أخوه الرائد «حيدرة» في مدينة دوما⁽¹⁾! وكان عددهم سبعة وعشرين ضابطاً برتبة رائد...

«هراء... كلام مغرضين! هل تصدقين أنت هذه الأكاذيب؟! إشاعات كثيرة و«فبركات» أطلقها الإرهابيون؛ تهدف كلها إلى تشويه سمعته، والنيل من معنوياته القوية»!

لم تكن ميساء قد أدركت بعد أن هذه الحرب (المعلنة في إعلام النظام وغيره من المحطات الفضائية)، قد أجمت النار والحق، وحولت الفزاعات إلى وحوش ضارية، وجعلت الطيور تخاف حتى الغيوم، ظناً منها أنها دخان قذائف... لكنني تمكنت بوسائلتي الخاصة، وبسرية تامة، من مقابلة عشرات الناجين والناجيات من الاعتقال؛ بعيداً عن أعين رجال الأمن

1 - دوما أهم حاضرة في القوطة الشرقية بدمشق، تعرضت مرات عدة للقصف بالأسلحة الكيماوية، وتم تهجير أهلها.

والمخبرين. كنت أضطر -بعض الأحيان- إلى التخفي بجلباب ونقاب أسود، وألتقي ببعض من خرجن من المعتقلات... لم تعترف إحداهن قط أنها اغتصبت، ولن تعترف! مع أن كل واحدة منهن كانت تحمل علامات تعذيب وندب واضحة على الثديين والردفين والساقين، تدل على أنها استبيحت، أو تعرضت للاغتصاب! وكل واحدة منهن شاهدت، أو أجبرت على مشاهدة عملية اغتصاب واحدة على الأقل، وعملية بتر لأعضاء شاب معلق، أو أكثر! وبعامه، كل من وقعت بين أيديهم من النساء تمت تعريتها؛ وبحجة التفتيش، تحرشوا بلحمها وروحها! وإن نجت إحداهن من ذلك، فلم تنج أي واحدة منهن من الإصابة بالجرب والقمل والقروح...!

اقشعر بدن ميساء عندما سمعت كلمتي «الجرب والقمل»... وصرخت، وهي تسد أذنيها: لا... لا... ثم أخذت ترتجف...! لم أخبرها أنهم كانوا يغتصبون رجالاً أمام نساء، ونساء أمام أزواجهن، وأنهم يحرقون حلمة فتاة بأعقاب السجائر، أمام الجميع، أو يبترون أعضاء شاب أمام أمه أو أخته...! ولم أخبرها أن الوحشية وصلت بهم، لدرجة أنهم كانوا يدخلون الفئران في فروج المعتقلات، وأن هذه الحوادث تمت -تحديدًا- في ذلك الفرع الشهير الذي يرأسه سيادة الجنرال! وأنهم كانوا يختاروا أجملهن، ويقومون بـ

«تطميش»⁽¹⁾ عينيها وتقييد يديها خلف ظهرها، ثم اقتيادها إلى الطبقة العليا، بحجة التحقيق...!

لم أخبرها بما سجلته ووثقته أفلام الناشطين والمنظمات الحقوقية، المحلية والدولية بالصوت والصورة... لكن أختي المسكينة، لم تكتشف الحقيقة إلا بعد فوات الأوان! وثقتها بنفسها، بجسدها، فوق جلدها، وبالذليل القاطع... وعلى الرغم من أن ما حدث معها لا يمكن تصديقه بسهولة، فقد تبين لها أنها هي - كذلك - كانت سجينه ومغتصبة مصابة بالقمل...

× × ×

ذات مرة أصابتها حكة حادة مفاجئة في بعض المناطق الحساسة من بدننها، أسفل البطن وبين الفخذين... لكنها لم تهتم للأمر، لأنه يحدث - عادة - بسبب الحساسية، أو نوع الصابون أو الشامبو، أو - ربما - بسبب النفط والألوان التي تستخدمها في الرسم! استعملت مراهم مختلفة للحكة والتحسس، وظنت أنه سيزول سريعاً، لكنه ازداد بشكل حاد، وبخاصة في منطقة العانة، وانتقل إلى إبطيها وردفيها، وبسبب الحكة، انتشرت معه بقع زرقاء شاحبة، وتغير لون جلدها؛ فاستدعت طبيبة الأسرة في الحال، وما إن فحصتها

1 - التطميش: إغلاق العينين بغطاء أسود.

وسألتها بعض الأسئلة المحرجة، حتى طلبت منها أن تحلق شعر عانتها وإبطيها، وأن تستدعي -مباشرة- الدكتورة سعاد، طبيبة الجلدية! قالتها بثقة وحزم جعل خوف ميساء يتحول إلى ذعر! لكنها طمأنتها بقولها: «أظن أنه القمل...» «قمل؟!» صرخت أختي مستنكرة، وأردفت، محاولة أن تفهم إن كان هذا الكلام دعابة أم لغزاً: «ومن أين سيأتي القمل؟!» منذ أقل من سنة، أصابتها الحالة نفسها تقريباً، لكن في يديها وبطنها لا غير، وتبين أنها مصابة بجرب طفيف، تم علاجه بسرعة، دون علم من سيادة الجنرال، لكن ميساء لم تسأل يومها: «من أين سيأتي الجرب؟! بل اكتفت باستبدال الخادومات والطاهيات! واضطرت إلى حلق شعر عانتها بالشفرة... وعندما سألتها الجنرال عن السبب، قالت إن الدكتورة سعاد نصحتها بذلك... كانت مهووسة مثلي بالنظافة، لا تستطيع النوم قبل أن تستحم... وقد يصاب المريض بالجرب عن طريق المصافحة أو الثياب... أما القمل! فمن منا يعرفه اليوم؟! قرأنا عن ذلك أيام «سفر برلك» وفي زمن الفقر والجهل و«التعثير»... لم نره منذ وقت بعيد في أي مكان، النظافة قضت على القمل منذ أكثر من نصف قرن... فمن أين سيأتي القمل لزوجتي جنرال تستحم -أكثر الأحيان- بالنبيذ والشمبانيا والمغاطس المعقمة؟!»

استحمت مرتين ونتفت شعر جسمها بآلة الـ «بروان»

الألمانية الأصلية، ولم تكتف بذلك، بل طلبت مني مساعدتها على سلخ جلدها بالشمعة العسلية... لكن ذلك كله لم يفد شيئاً. وكم كانت دهشتنا كبيرة، عندما فحصت دكتورة الجلدية، عانة أختي وحاجبيها وأهدابها بالمكبرة، وقالت «أيواااا...» ثم تناولت بملقط دقيق، حشرة صغيرة وضعتها تحت المكبرة وأعلنت بأن هذا اسمه قمل العانة التناسلي، أو «القُمَّل» واسمه العلمي Crab louse، وهي تشبه سرطان البحر، أنظري... تصعب رؤيتها بالعين المجردة، لأن طولها لا يتجاوز ملليمترًا ونصف! صُغت ميساء... فتحت عينيها دهشة ولم تعد تستطيع إغلاقهما: «قمل العانة التناسلي؟! شو يعني؟!» وعادت ثانية إلى السؤال نفسه و«من أين سيأتي القمل?!»

قالت الدكتورة بحيادية تامة، إنَّ العدوى بالقُمَّل قد تتم عن طريق الملابس أو الفرش والبطانيات والمناشف... لكن الطريقة الشائعة للإصابة بقمل العانة -تحديدًا- تكون عبر الجماع! كتبت وصفة مناسبة، وأكدت على ضرورة غسل جميع الملابس وحلق العانة بالشفرة، وتجنب الاتصال الجنسي تمامًا... كما طلبت -للاحتياط- أن يخضع الشريك للعلاج أيضًا...

واحتارت ميساء ماذا تقول أو تفعل! هل تخبره بما

حدث؟ ولكن كيف؟! سيرتاب فيها حتمًا..! لم أشك للحظة واحدة أنه هو من نقل إليها العدوى، فأختي لم تعرف رجلًا غيره... أنا أكيدة من ذلك، وحتى لو أرادت فلن تستطيع... أما هي، فلم يخطر ببالها أبدًا أن يكون هو السبب! كانت ثيابه تغسل فور وصوله إلى البيت، ولم تكن تنام معه ولا تراه أصلًا إلا مرة في الشهر أو الشهرين... وقررت أن تعرض نفسها على طبيبة أخرى، لكن الإصابة بقمل العانة التناسلي، تأكدت هذه المرة أيضًا...

زارها منذ أسابيع قليلة، كان نظيفًا أنيقًا معطرًا! ولم أحاول أن أقول لأختي شيئًا! فهذا موضوع خطر جدًا! وإذا تأكد ظني، فهذا يعني أنه يشارك فعليًا في اغتصاب المعتقلات، ولكن، كيف تستطيع ميساء أن تثبت هذه التهمة الخطرة، وهي لا تجرؤ، حتى على إخباره بما حدث؟! إن معرفته بالأمر وحدها، قد تؤدي إلى قتلها، وهو لا يعدم الوسيلة أو السبب...

قررنا -بعد أيام- أن نخفي الأمر عنه، إن استطعنا، وطلبت منها أن تهدأ وتتصرف بحكمة، وراحت -بدورها- تدعو الله ألا يأتي قبل أن تكمل العلاج، وقبل أن يكتشف أنها حلفت... واقترحت عليها أن تسافر خارج البلاد، أن تخرع ذريعة ما، وتبتعد لفترة من الزمن... لا أظن أنه

سيمانع في سفرها، مع أنها لم تسافر وحدها قبل الآن، إلا
بمهمة رسمية...

وفي حمأة التفكير والتدبير رنّ هاتفها... كان هو
المتصل! سألتها ماذا تفعل، وعلى غير عادته، سأل عن أحوالها
وصحتها... وقال إنه حلم حلمًا مزعجًا وأراد أن يطمئن
عليها... وأخيرًا طلب إليها أن تجهز نفسها وتعود إلى دمشق
لسبب طارئ...

كاد الهاتف أن يسقط من يدها، لم تعد تقوى على
الوقوف... ولم تجرؤ على سؤاله عن السبب... هل علم
بما حدث! لا شك أنه علم! لا يخفى على رجل مثله أمر
كهذا... هل أخبرته إحدى الطبيبات أنها مصابة بقمل
العانة التناسلي!؟

كانت المعارك على أشدها في حمص، فأرسل إليها
حوامة كي تنقلها إلى دمشق... وتبين -عندما وصلت- أن
السيدة الأولى هي من طلبت حضورها، كي تشرف على
مشروع خيري تقيمه للأطفال المهجرين من حمص... كنت
أرافقها كظلها، لا علاقة لي بمشاريع السيدة الأولى وخطتها،
وكانت فرصة مناسبة جدًّا للوقوف إلى جانبها، والكشف
عن مؤامرة القمل التي ابتليت بها! اشتريت مكبرة لي وأخرى
لها، مثل تلك التي تملكها الدكتورة سعاد، وخبأتها في مكان

آمن بانتظار قدومه، لكنه لم يزرها إلا بعد أسبوع من قدومنا إلى دمشق... وصل -دون إنذار- بعد منتصف الليل، وركضت ميساء تسألني ماذا ستفعل! ولم يكن أمامها سوى حجة واحدة هي الدورة الشهرية... يومها أمضيت جل وقتي في غرفة الغسيل؛ حيث كنت أفحص على مهل ثيابه الداخلية... كانت بيضاء، لكن متسخة لدرجة القرف، مليئة ببقع صفراء وبنية... وعلى الرغم من وجود المكبرة، لم أتمكن من تمييز شيء في هذه الفوضى... كيف يمكن لجنرال أنيق أن يخفي مثل هذه القذارة؟! أستطيع أنؤكد أنه لم يستحم أو يبدل ثيابه منذ أسبوع، وربما أكثر... علمًا أن لديه في مكتبه، حمام و«بانيو» فاخر، ويستطيع تبديل ملابسه الداخلية في أي وقت يشاء!

في ذلك اليوم استيقظت مرعوبة! كان فمي جافًا ولساني تحول إلى قطعة حطب، وكانت ميساء تحب الموسيقى، فأصحو دومًا على صوتها، لكنني -يومها- شعرت بصمت مريب يخيم على البيت! ظننت أنه ما زال نائمًا... نهضت -بحذر- وسرت نحو جناح ميساء، وجدتها في غرفتها وحيدة تقف عارية أمام المرأة، لا ترتدي سوى برنس الحمام... عندما رأتنني ابتسمت، أين الموسيقى؟ سألت، فقالت: «ما في موسيقى» وقهقهت على غير عاداتها بصوت مرتفع... لم تكن أختي التي أعرفها، بل امرأة أخرى، جديدة! متمردة... «لم

أثم طوال الليل» قالت، «كنت أنتظرك منذ الفجر»... ثم جذبتني فجأة نحوها، وضحكت دونما سبب، وقالت على طريقة أرخميدس: «وجدتها...!» وهُيئ لي -فجأة- أننا تبادلنا الأماكن! صرت أنا داخل المرأة وهي خارجها...

«ليست قملة واحدة، بل ثلاث قملات... كنت أستطيع -لو أردت- أن أقترّب من عانته الخشنة وأن أعضاها بأسناني، دون أن يشعر... قدمتُ له كأسًا واحدًا من الويسكي، وجعلته ينام بعمق... استحم وتعطر وما إن وضع رأسه على المخدة حتى راح يشخر... لا شك عندي الآن أن شعر صدره وذقنه غابة كثيفة تخفي جيشًا من القمل! وجدت القملة الأولى فوق جبينه... وعندها، نسيت وجوده، لم أعد أخافه، ولم يعد يهمني إن استيقظ أم لا. أحضرت المكبرة ورأيته... كانت بيضاء تلمع مثل ذرة دهن... خرجت واحدة أخرى من بين شاربيه، دارت حول فتحة أنفه ومشت بثقة نحو الأعلى! لم تكن قملة واحدة بل تشكيلة من القمل تسرح على وجهه، بعضها صغير كالصئبان، يعشش في فروة رأسه، ولا يرى إلا بالمجهر، وبعضها كبير عسلي، تستطيعين رؤيته بالعين المجردة! تسالت واحدة ضخمة من تحت حاجبه، ومشت ببطء على جبينه المرتفع... إنها تشبه سرطان البحر: رأسها قصير، وصدرها عريض، يتألف من ثلاث قطع ملتحمة، أما

بطنها فيتألف من ست قطع، ولها أرجل طويلة ذات عقائف...
 تمكنت من التقاط ثلاثة منها بأظفاري، هل تريدان أن تريها؟
 تعالي... أخرجت من الدرج ورقة مطوية بحرص، وبداخلها
 ثلاث قملات كبيرة... انظري... هل ترينها؟ خذي المكبرة
 وانظري إليها... هذا هو الدليل، ولا يهمني شيء بعد الآن...
 استيقظ متأخراً، ارتدى ثيابه وخرج مسرعاً، كانت المرافقة
 بانتظاره... وبقيت أنا أنتظر أن تستيقظي كي أريك
 الدليل... هذا هو الدليل...

لم أصدق ما سمعت وما رأيت! لكنها كانت سعيدة
 باكتشافها... لم أرها يوماً بهذا الإشراق! أصبحت مثل
 فراشة خرجت للتو من شرنقتها.

بعد أيام قليلة، وعلى غير عاداتها، ارتدت سروال
 جينز قديم وحذاء رياضياً مناسباً! طلبت مني أن نخرج
 للتجول في نزهة بسيارتها الجديدة! أمرت المرافقة ألا
 ترافقها... كان الوقت صيفاً، والشمس قد غابت منذ أكثر
 من ساعة... بقيت صامتة طوال الطريق، وعندما اقتربنا من
 ساحة الأمويين، أوقفت السيارة - فجأة - في مكان معتم،
 وأطفأت محركها ثم نظرت إلي وقالت: «ألم تطلبي مني أن أهدأ
 وأتصرف بحكمة... خلص، انتهينا... المرأة الحرة لا تستطيع
 أن تعيش مع رجل نذل...»

تجادلنا طويلاً، كنت خائفة عليها، وأعرف ما الذي
يدور في رأسها، وما المخاطر التي تنتظرها، لكنني لم أكن
أتوقع أن تتركني هكذا بلا رحمة! قالت إنها مشغولة بشأن
ما، خاص بها! لم أجرؤ على سؤالها، ظننت أن السيدة الأولى
قد طلبتها... أمسكت بيدي ووضعت فيها مفتاح سيارتها
وهاتفها «الخاص»، وقالت: «استحمي جيداً»؛ ثم تركتني
متجهة نحو طريق الربوة⁽¹⁾، وابتعدت حتى غابت في العتمة...

1 - قرية خضراء على نهر بردى، بالقرب من قرية ميسلون الشهيرة، تقع على الطريق
القديم الرابط بين دمشق وبيروت

- 3 -

أعترف أن جلدي راح يحكني وأنا أقرأ مقطع القمل!
 شعرت أنه يسرح في شعر صدري وفروة رأسي
 وحاجبي... صرت مضطرباً -مثل ميساء- لأن أحلق شعر
 عانتي وأستحم مرتين في اليوم، ولو كنت أستطيع أن أسلخ
 جسمي بالشمعة العسلية لفعلت، كي أتخلص من هذا
 الشعور المقيز! وكإجراء احترازي، قمت بشراء مكبرة مثل
 مكبرة الدكتورة سعاد، ووجدت نفسي أتساءل مثل ميساء:
 قمل! ومن أين سيأتيني القمل؟! كان موجوداً عندما كنا
 نعيش في الظلمات، مع الحيوانات، هل عدنا إلى عصر الظلمات
 و«الحيونة»؟! وهل يعقل أن تكون هذه الحكاية واقعية، أم
 هي من نسج الخيال!؟

انتظرت النهاية لكنها تأخرت... ولا أدري لماذا خفت أن تكون الحكاية قد انتهت بالفعل، أو ربما شارفت على النهاية، ولم يبق أمامنا إلا وضع اللمسات الأخيرة، وصياغة خاتمة مناسبة لها، قبل طباعتها... والخاتمة - كما هو معروف - أصعب مرحلة في الإبداع بأنواعه كلها. العرب يسمونها «حسن التخلص» والأكاديميون يقولون: قد يكون للرواية خواتيم لا نهاية لها؛ لكن واحدة فقط هي الصحيحة!

في تجربتي هذه، تبين أن الرواية تحتل نهايات كثيرة، وأنها صحيحة كلها...

اقترحت طهران أن نتوقف عند رحيل ميساء وقولها «لكنها أمسكت بيدي ووضعت فيها مفتاح سيارتها وهاتفها الخاص»، وقالت «استحمي جيداً»؛ ثم تركتني متجهة نحو طريق الربوة، وابتعدت حتى غابت في العتمة...

ربما يكون هذا جميلاً، وممكنًا، من الناحية الدرامية على الأقل، لكنها نهاية غامضة حزينة ورومانسية! لم أوافق عليها، ظننت أنه سيكون من الأفضل أن تكون النهاية سعيدة! فأنا كاتب متفائل، أحب إشعال الشموع! كلما قتلوا شاعرًا ورثت دمه، وكلما قتلوا امرأة ورثت رحمها، وكلما قتلوا طفلًا ورثت براءته وألعابه... قد أكون طوباويًا أو رومنسياً، وربما مثاليًا أو مراهقًا سياسيًا، لكنني متفائل بعمق، على الرغم من

هزيمتي وانحساري، وعلى الرغم من خوفي وشعوري العميق بالغدر والخذلان من قبل العالم وكرته الأرضية، وأصدقاء بلدي وأعدائها وأشقائها وعشاقها وخلانها وجيرانها... متفائل على الرغم من انحراف الكون، وعلى الرغم من اختفاء العلم الملون من سماء المدن المدمرة، وارتفاع الرايات السود... متفائل رغم أنفي، وكيف يمكن أن أتشاءم وقد تجاوزت الستين! ورأيت بعيني العنقاء وهي تخرج من تحت الركام والرماد! المتشائمون يجتزون الماضي ويأكلون أنفسهم... يجب أن أكتب نهاية متألمة؛ كأن تنتهي الحرب مثلاً، أو أن تحقق طهران أحلامها! أو أن يموت الجنرال، ألم تقل إنه قتل في ظروف غامضة عام 2012؟ فلماذا لا نلقي الضوء على مقتله، نستمتع به، نشعل النار ونغني ونرقص حولها؟! لقد قُتل حقاً، ومنذ سبع سنوات، لكن الحرب لم تنته بعد، والخراب راح يتخمر وتخرج منه فقاعات العفونة وروائح الكارثة! وما الفائدة من الحديث عن مقتله؟ يوجد مثله العشرات المئات الآلاف... وهل سيساعد هذا في وضع نهاية للقمل والبؤس والدمار القادم؟! ولماذا لا أتحدث بإسهاب أكثر عن أبي خضر مثلاً، والد «الشهيد»، الذي تحول من مناضل يساري إلى متعهد كبير؟! هل يشفع له انتحاره؟ إنها قصة حزينة أيضاً، والحديث عنه مجدداً لا يصلح أن يكون نهاية معقولة... كان يجب أن أفعل ذلك في حينه! لقد فات الأوان

الآن... هل أجعلها تهرب إلى داريا وتختبئ هناك خوفًا من انتقام الجنرال، وتبريرًا لعلاقتها مع جفان؟ لكن الجنرال قتل منذ بداية النهاية، وقصتها مع جفان غير حقيقية أصلاً... وماذا عن شخصية الملازم الشاب حيدرة؟ إنها طريفة حقًا، وقد تكون قابلة للتطور، لكنها قتلت -أيضًا- في دوما، بعد أن أصبح برتبة رائد...

أصرت على أن أقوم أنا بكتابة الخاتمة! قالت بوضوح إنها لا تعرف -حقًا- كيف تكتبها، واتفقنا أخيرًا على أن نكتب نهايتين: واحدة تكتبها هي، والأخرى أنا... أعجبت بهذا الاقتراح، وبدأت للتو بالتفكير والتنفيذ، وقررت أن أعيد النظر بشخصية فرج، إنها شخصيتي المفضلة. وبدأت بذلك... عدت إليه من جديد؛ كنت أريد أن أزوجه وأجعله يبني بيتًا ويصبح أبًا...

لكنها توقفت فجأة عن التواصل معي، ولم تعد ترد على رسائلي! والأخطر من هذا أن أحدًا ما قام بتعطيل بريدها الإلكتروني! كنت أتوقع هذا! وقد حدث سابقًا، فشخصية غامضة كطهران، لها نهاية مأسوية واحدة، هي الاختفاء المفاجئ، وربما الخطف أو القتل، من يدري!؟

كم كنت أن أود أن ألتقي بها ثانية قبل اختفائها! أن تزورني ونقضي ليلة نبئذ تشبه تلك الليلة التي

استدرجتني فيها إلى بيتي، وحملتها بين ذراعي ... ليلة واحدة أخرى تكفيني، نهد واحد يكفي ... كنت أظن -لسذاجتي- أنها ستكون خاتمة مناسبة، غارس فيها الحب والنبذ والتقميل الجنسي والروحي! أمشط شعرها بعظم أصابعي، كي أنظفه من الصئبان، أو نذهب سرّاً إلى إحدى الغابات البعيدة البكر، حيث نتحول إلى قرود عارية؛ يلاحق كل منا الآخر، نقفز من شجرة إلى شجرة، ثم يقوم أحدهنا بحضن نصفه الثاني وتثبيته بين ركبتيه، ليتفقد شعره وجلده، ويخلصه من القمل، بلا مكبرات ولا مراهم أو عقاقير طبية ... لكن أين أجدها الآن؟ كيف أبحث عنها، والدخول إلى داريا مازال ممنوعاً، والقبو الذي وصفته وأعرفه جيداً، مازال غارقاً تحت ركام من التبن وقشور اللوز؟ ومن قال إنني سأجدها هناك ...؟

مضى أكثر من ثلاثة أشهر، قبل أن أفاجأ برسالة جديدة منها، ومن حساب بريدي جديد، وما إن قرأتُ رسالتها حتى شطبت النهايات «السعيدة» كلها التي خطرت على بالي، وقررت أن تكون رسالتها هي النهاية: تحياتي غسان.

ساعني ... لقد اضطررت لمغادرة البلاد. أنا الآن في فرنسا، تركت فلذة من صدري لديك، ورحلت! سوف

أحصل على إقامة موقتة قريبًا جدًا... أعذرني، لأنني لم أتمكن من كتابة نهاية مناسبة كما اتفقنا... لقد كتبتها منذ البداية! ذهبت البطلة كي تعيش مع جفان في قبو بمدينة داريا، وعندما مات جفان ماتت...

كنت -أحيانًا- وقحة جدًا معك، كذبت عليك في أكثر من فصل وحكاية؛ والرواية -كما قلت- لا تتقن الكذب، فأرجوك أن تصحح خطأي وتحذف ريائي أينما وجدته. نعم أنا من رسم تلك اللوحة التي تتحرك فيها الفئران، وقد ذهبت إلى ذلك القبو كي أسترِد لوحة أخرى رسمها جفان لي، وأنا عارية تمامًا، بنهدين بارزين... خفت أن تقع في يد الأمن، هذه هي الحقيقة. وعندما اكتشفت أن جفان قد أتلفها قبل مقتله، حرصًا علي، عدت بسرعة إلى البيت... كان اسمي مستعارًا، نعم، كنت -بالفعل- وحيدة أمي وأبي. وقد اخترعت أختًا كي تحمل همي، وتقول ما لا أستطيع قوله... حتى أخي خضر كان محض رسم على الرمال...

باستثناء حادثة «قمل العانة»، أغلب الحوادث التي سردها كانت ملفقة، لكنها كانت حوادث واقعية، صدقني. كنت أريد أن أقول الحقيقة عن طريق الكذب! لا أستطيع البوح بالحقيقة / حقيقتي، كما هي وبشكل تام،

لأنها ليست ملكي، ولأنها قاتلة، وهذا ما أجبرني على تلفيقها
بعض الأحيان... لكنها كانت واضحة! ألم تكن واضحة؟

هل تذكر زيارتي لك في تلك الليلة، عندما شربنا
النيبذ؟ إنها الحدث الحقيقي الوحيد في هذا الركام من
الكلام... لو تعلم ما الذي فعلته بي هذه التجربة! شعرت
بأنني امرأة حقيقية، وكانت محاولة رائعة منك لغسل
روحي.

شكرًا لك غسان، لقد أنقذتني من الموت. وشكرًا
لأنك وفيتَ بوعدك ولم تذكر اسمي الحقيقي... لن أكذب
عليك بعد الآن، صدقني، كلي ثقة بأنك ستصدق وتغفر
حماقاتي السابقة. لم يكن جفان إلا حلمًا مشتهى، وأنتَ أعلم
الناس بذلك، إنك تشبهه، لأنك الأقرب إلى هذا الحلم اللذيذ.
كنتُ بحاجة ماسة إلى رجل يحملني بين ذراعيه، ويدخلني
إلى غرفة النوم، وكنت أنتَ ذلك الرجل.

أرجو أن تحذف اسمي المستعار وتنشر الرواية باسمك
أنتَ. هي ملكك وحدك، احذف منها ما شئت وأضف إليها ما
تشاء، إنها روايتك، وإذا كان ذلك سيشكل أي خطر أمني
عليك، فأرجوك ألا تغامر! أرجوك... مزقها أو انشرها بأي
اسم مستعار، وليكن جفان أو طهران أو ميساء أو فرج الحزين،
أو أي اسم آخر، فجميع الأسماء من صنع يديك أنت...

بالمناسبة، ميساء وجفان وفرج يهدونك التحية
ويشكرونك: فرج يشكر ك لأنك احترمته ولأن نهايته
كان يجب أن تكون في الجامع، كما حدث مع كثيرين، لكنك
جعلته ينتفض، وحوالته من لقيط مجهول النسب، إلى رجل
هام... وجفان يشكر ك لأنه مات باكراً وارتاح... أما ميساء
فتشكر ك لأنها «تحبك».

هند

باريس. منتصف آذار. 2019

